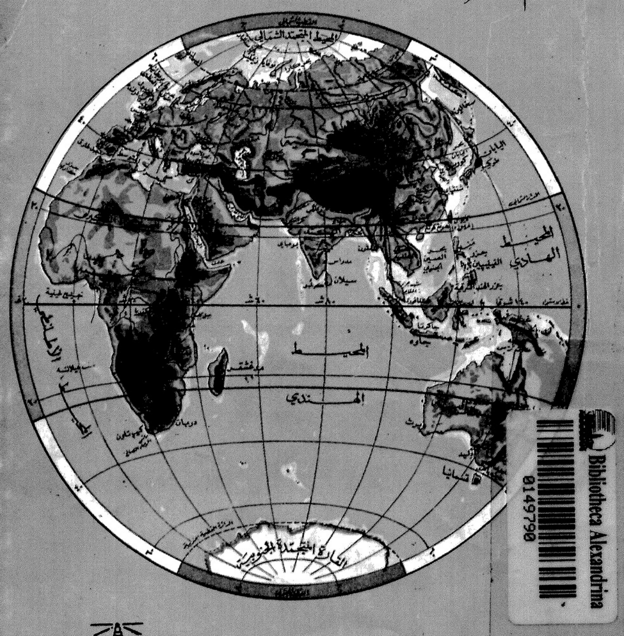
أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر



دكتور
فاروق عثمان أباظة

دار المعارف

أثر تحول التجارة العالمية

أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر

للدكتور
فاروق عثمان أباظه
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج م ع.

مقدمــــــــة

تعتبر حركة الكشوف الجغرافية التى تم شطر كبير منها فى نهايـــة القرن الخامس عشر الميلادى من أهم النتائج العملية للنهضة الاوروبية الحديثة ، التى ارتبطت بموجة التعصب الدينى من قبل مسيحيى أوربا ضد العالم الاسلامى • وكان ذلك رد فعل للوجود الاسلامى فى الاندلس الذى أستمر قائما لمدة ثمانية قرون سابقة من ناحية الغرب ، وللحروب الصليبية التى شهدها عالم البحر المتوسط وامتدت بين القرنين الحادى عشر والثـــالث عشر الميـــلاديين ، ولدور العثمانيين فى الســـيطرة على القسطنطينية عام ١٤٥٣ من ناحية الشرق • وقد أدى اندفاع القـــوات العثمانية الى شرق ووسط أوربا من جهة ، والى سواحل البحر الاسود وبلاد فارس من جهة أخرى ، الى سد الطرق التجارية الموصلة بين آسيا وأوربا عبر هذه المناطق ، وأثر بالتالى فى التجارة العالمية وطرقهـــا ومراكزها ، مما حولها تماما الى موانى مصر والشام المطلةعلىالبحر المتوسط، والتى كانت تسيطر عليها دولة المماليك آنذاك • وكانت الدولة المملوكية تستقبل التجارة العالمية عبر الذراعين البحريين الممتدين الى أوربا وهما الخليج العربى من جهة ، والبحر الاحمر من جهة أخرى • وكان لنهـــرى دجلة والفرات من الجهة الاولى ولنهر النيل من الجهة الثانية أثرهم البالغ فى تسهيل حركة التجارة بحريا ، الى جانب طرق القوافل التى تربطهم بريا بموانى البحر المتوسط فى جانبيه الشرقى والجنوبى •

غير أن الغرب الاوربى فى نهاية العصور الوسطى وخاصة فى القرن الخامس عشر الميلادى كان قد مل التعامل مع المماليك بسبب كثرة الضرائب وارتفاع رسوم الجمارك وقوة الاحتكارات ، مما دفع الاوروبيين الى

البحث عن طريق آخر أكثر أمنا وأقل تكلفة وحققت هذا الهدف البرتغال التى اتجهت، فى كشوفها للوصول الى الهند ناحية الشرق ، بعكس الاسبان الذين اتجهوا فى كشوفهم الجغرافية ناحية الغرب ، فعبروا المحيط الاطلسى ووصلوا الى العالم الجديد • بينما اندفع بحارة البرتغال يحدوهم التحمس الدينى فداروا حول افريقيا ووصلوا الى رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٨٧ ، ثم تمكنوا من الوصول الى الهند فى سنة ١٤٩٨ • ومن خلال عدة معارك حربية تمكنوا من القضاء على نفوذ المماليك فى البحار الشرقية ، وسيطروا على تجارة الشرق ، مما كان له أكبر الاثر على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، فى المجالات الاقتصادية ، والسياسية، والاستراتيجية • وسوف يضعف هذا الاثر تدريجيا منذ نهاية القرن السادس عشر وخاصة بعد انضمام البرتغال الى أسبانيا عام ١٥٨٠ ، وهزيمة الاسطول الاسبانى الارمادا امام أسطول انجلترا عام ١٥٨٨ • اذ سيتحول مركز الثقل البحرى والتجارى الى قوى أوربية أخرى تمثلت فى هولندا وفرنسا • وسوف تتعاظم قوة انجلترا بوجه خاص فى هذا المجال لتصبح فى مقدمة القوى الاوربية التى ستنجح فى احياء الطريق التقليدى القديم عبر مصر والبحر المتوسط فى نهاية القرن الثامن عشر •

والحقيقة أن أى مشتغل بالبحوث التاريخية لا يغيب عنه معرفة جوانب كثيرة من هذا الموضوع ، غير اننى أردت ببحثى هذا أن أضع هذه الجوانب مجتمعة تحت غلاف واحد ، وأن أقيم حجمه الحقيقى فى احداث تغير فى الواقع الاقتصادى والسياسى والاستراتيجى الذى عاشته مصر وعالم البحر المتوسط ، منذ وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ وحتى نهاية القرن السادس عشر ، أو

بالاحرى نهاية الفترة التى ظهرت فيها انعكاسات هذا الحدث التاريخى الهام ، وردود الفعل المختلفة ازاءه ، والنتائج التى ترتبت عليه .

ولهذا فاننى سأعالج هذا الموضوع من الناحية المنهجية بتقسيمه الى ثلاثة فصول ، أولها أتتبع فيه التجارة العالمية عبر مصر وعالم البحر المتوسط قبيل تحولها الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر ، وثانيها أتتبع فيه دور البرتغاليين فى احداثهذا التحول فى نهاية القرن المذكور ، وثالثها أتتبع فيه الاثار التى احدثها هذا التحول فى مقدرات مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر من النواحى الاقتصادية ، والسياسية والدبلوماسية ، والاستراتيجية ، والتى انعكست على جوانب الحياة فى هذه المنطقة الحيوية من العالم لمدى بعيد فى تاريخها الحديث .

وقد استندت فى هذه الدراسة الى عدد من المصادر الوثائقية والمخطوطة المعاصرة ، والى عدد آخر من البحوث والمراجع المنشورة الموثقة . وكانت الوثائق المحفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية، والتى تخص محكمة الاسكندرية الشرعية ، والتى ارفقت بالبحث عشرين وثيقة مختارة منها لم يسبق نشرها ، من أهم المصادر الوثائقية لهذه الدراسة ، فهى تعد مصدرا خصبا وثريا للماده العلمية ، كما تعتبر من أصدق وثائق تاريخ مصر فى العصر العثمانى . وقد قسمتها الى مجموعتين أولهما تتعلق بالنشاط التجارى للتجار المغاربة فى الاسكندرية وعددها ثلاث عشرة وثيقة ، وثانيها تتعلق بالنشاط التجارى للجاليات الاوروبية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط المقيمين بالاسكندرية وعددها سبع وثائق . وتعود جميعها الى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى .

وقد شرفت بتقديم هذا البحث فى ندوة « مصر وعالم البحر

المتوسط عبر العصور » التى نظمها سمنار الدراسات العليا للتاريخ بكلية الاداب بجامعة القاهرة فى الفترة من ١٣ — ١٥ أبريل ١٩٨٥ • وكنت بحق من اكثر المستفيدين من الحوار العلمى الذى دار حـــول الابحاث التى قدمت فى هذه الندوة ، خاصة واننى اقوم بتدريس مقرر « علاقات مصـــر الدولية بشعوب البحر المتوسط فى العصور الحديثة » لطلاب الدراسات العليا بمعهد دراسات البحر المتوسط بكلية الاداب بجامعة الاسكندرية كما اشرف على بحوثهم • وأرجو أن أكون بهذا البحث قد قدمت قراءة جديدة لموضوع تاريخى هام ، يجمع بين ثناياه أبعادا اقتصادية وسياسية واستراتيجية فى آن واحد ، فضلا عن كونه محور تحول وانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة •

والله ولى التوفيـــــق ،،،

د• فاروق عثمان اباظـــه

الفصـــــل الاول

التجارة العالمية عبر مصر وعـــالم البحر المتوسط قبيل تحولها الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشـــر الميـــلادى

كانت التجارة العالمية الاتية من بلاد الشرق الى أسواق أوربا طوال العصور القديمة والوسطى تظفر برواج واسع وتحقق أرباحا خياليـــة للمشتغلين بها منذ شحنها فى موانى التصدير الاسيوية والافريقية المطلة على المحيط الهندى حتى يتم توزيعها فى أسواق أوربا • وكانت هذه التجارة تعبر مصر والشام لتصل الى عالم البحر المتوسط حيث تستقبلها الموانى الاوربية التى تقوم بتوزيعها فى أسواق أوربا • وكانت هذه السلع متعددة ومتنوعة ويتشكل قوامها من البخور ، والعطور ، والتوابل [١] • التى عرفت تجارتها باسم تجارة الكارم [٢] ، والعقاقير ، والبن ، والاقمشة الحـــريرية ، والسجاجيد ، والعاج والاحجار الكريمة والاخشاب النادرة التى يصنع منها أرقى أنواع الاثاث الفاخر والتحف الثمينة • فالتوابل كان فى مقدمتها القرفة والجنزبيل والفلفل وجوز الطيب ، واستخدمت فى اعداد الوان الطعام ، وأصبح عليه القوم من الاوروبيين لا يقبلون على طعام لم يمزج بالتوابل الشرقية [٣] • كما اقبلت النساء الاوربيات على المسك والعنبر

---

(١) نعيم زكى فهمى (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ، ص ١٩٢ •

(٢) توفيق اسكندر (دكتور) : بحوث فى التاريخ الاقتصـــادى (مترجم) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦١ ، ص ١٤٠ •

(٣) Howe, Sonia : In Quest of Spices, pp. 13,14

وماء الورد وأطيب أنواع العطور والبخور والمنسوجات الحريرية الراقية ، وكانت تشاركهن فى ذلك أيضا الكنائس فى أوربا . أما العقاقير المتعـددة الانواع مثل الافيون والـكافور والصـدغ وغيرها ، فـكان الاوربيون يستخدمونها فى اعداد الدواء ويكتبون عليها ما يدل على استيرادها من بلاد الهند أو بلاد العرب تأكيدا لجودتها [٤] .

وكان البن من أهم السلع الشرقية التى انفردت بلاد اليمن فى العصور الوسطى بانتاجه ، واقبل عليه الاوربيون اقبالا متزايدا ، حتى كان هذا المحصول فى القرون التالية موضع تنافس حاد بين شركة الهند الشرقيـة الانجليزية (١٦٠٠ — ١٨٥٨) وبين طلائع التجار الامريكيين الذين حاولوا احتكاره فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مما جعل بريطانيا تعمل على كسر احتكار الامريكيين لهذه التجارة وتحويلها من ميناء مخا اليمنى الى ميناء عدن الذى قامت باحتلاله فى ١٩ يناير ١٨٣٩ . [٥] .

أما بالنسبة لتجارة الاقمشة الحريرية فقد عرفت فى ديار الشام ومصر منذ القرن الاول قبل الميلاد حيث كان الرومان يحتلون تلك البلاد . وكان الحرير هو المادة الرئيسية فى الاتجار بين العالم الرومانى والصين ، اذ كان الحرير يشكل تسعة أعشار ما يستورده الرومان منها ، وكان يصل الى موانى صور وصيدا وانطاكية والاسكندرية . وفى الموانى الفينيقية كان يعالج بالاصباغ المختلفة ، وأشهرها الارجوان ، وعندها يصبح لبـاس

---

(٤) عبد العزيز محمـد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلـع العصـور بجامعة عين شمس ١٠ـ١٥ مارس ١٩٧٩ ، ص ٣٧٧ .

(٥) فاروق عثمان أباظه (دكتور) : التنافس الدولى فى جنوب البحر الاحمر فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ندوة « البحر الاحمـر فى التاريـخ والسياسة الدولية المعاصرة » التى أقامها سمنار الدراسـات العليا للتاريـخ الحديثة ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

الاباطرة ، وفيما بعد أصبح لباس كبار رجال الكنيسة • وظل انتاج الحرير حكرا على الصين ، والاتجار به خاضعا لمن يتولى شئون ايران الى أواسط القرن السادس للميلاد عندما حمل راهبان بعض بذور القز فى جـوف عصيهما خفية الى الجانب الشرقى من حوض البحر المتوسط ، وعندهـا باشرت تلك المنطقة بانتاج الحرير • وانتشرت صناعة الحرير فى لبنان بسبب جودة المناخ لزراعة التوت وحفظ الشرانق صيفا ومهارة الصناع فى خدمة الحرير نسجا وصباغة • وكان الحجاج البنادقه والجنويون وغيرهم يعودون من الاراضى المقدسة حاملين معهم النسائج الحريرية التى كان الطلب يتكاثر عليها فتضطر مراكب البندقية الى المكوث طويلا فى مرفأ صور فى انتظار الفراغ من تجهيزها • وبعدما كانت الاقمشة الحريرية محصورة الاستعمال فى تزيين المذابح وجدران الكنائس ، فقد انتشر استخدامها فى قصـور الامراء الذين تسربلوا هم ونساؤهم بالالبسة الحريرية ، كما صنعت من الحرير الاعلام وأغشية الاسرة ، وازدانت بها الخيام وأماكن الاستقبال فنشط طلبها من الشرق نشاطا كبيرا (٦) •

وكانت التجارة العالمية بين الشرق والغرب فى العصور الوسـطى تسلك عدة طرق برية وبحرية من مصادرها الاصلية فى بلاد الشرق والتى يطل معظمها على المحيط الهندى حتى تصل الى الاسواق الاوروبيـة • وكان الحجم الاكبر من هذه التجارة يسير فى طريقين اولهما : طـريق البحر الاحمر الى السويس ثم الى القاهرة بالقوافل ، ومنها على ظهر السفن فى فرع رشيد الى قرب مدينة الرحمانية ، ومن هناك الى الاسكندرية،

---

(٦) نقولا زيادة (دكتور) : الطرق التجارية فى العصور الوسطى ، مقـال نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم التى تصدر فى بيروت السنة السادسة العددان ٧١ــ٧٢ ، سبتمبر ــ أكتوبر ١٩٨٤ ، ص ٣٨ــ٤٠ •

اما بالملاحة فى ترعة كانت تصل ما بين النيل والاسكندرية أو على ظهر الدواب [٧] • وثانيهما : طريق الخليج العربى ونهر الفرات ، ثم الى حلب ومنها الى الموانى الواقعة شرقى البحر المتوسط [٨] • والى موانى مصر والشام وكانت تأتى سفن البنادقة والجنوبيين وغيرهم ، فتنقل سلع التجارة الى أوربا • ولما كان سلاطين المماليك يحكمون مصر والشام فى نهاية العصور الوسطى وحتى مطلع القرن السادس عشر ، فقد كان الطريقان فى قبضتهم • وبذلك جنوا فوائد مادية عظيمة ، من الضرائب الكثيرة التى كانوا يفرضونها على هذه التجارة عند مرورها بالاراضى المصرية والشامية ، فضلا عن احتكارهم لكثير من سلعها المختلفة [٩] •

ومنذ اواخر القرن الثالث عشر الميلادى بدا ملوك « أرغونة Aragon كذلك يحرصون على اقامة علاقات قوية مع سلاطين المماليك فى مصر والشام من أجل رعاية شئون كاثوليكيى الشرق وفتح أسواق جديدة لارغونة فى مصر • وقد أثبتت المصالح التجارية والاقتصادية تفوقها على المصالح الدينية فى علاقات الاوروبين بالمماليك ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى بحيث كان لكل من البندقية وجنوة وأرغونة تجارة نامية مع مصر ، وساعدتهم علاقاتهم التجارية الطيبة بالمماليك على التدخل لصالح المسيحيين الكاثوليك المقيمين فى أراضى الدولة المملوكية آنذاك [١٠] •

---

(٧) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٢٤ •

(٨) Wilson, A. T. The Persian Gulf, pp. 10, 13.

(٩) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ، ص ٢٠٨ •

(١٠) قاسم عبده قاسم (دكتور) : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ٩٧—٩٨ •

وكانت مدينة القاهرة عاصمة العالم التجـارية فى عصر سـلاطين المماليك خاصة بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية الكبرى بين الشـرق والغرب فى ذلك العصر نتيجة لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار ، وبقى طريقى مصر والبحر الاحمر وحده بعيدا عن تهديدهم ، الامر الذى مكن سلاطين المماليك من احتكار التجارة الشرقيه وخاصة تجارة التوابل • وقد عاد ذلك على المماليك وعلى عاصمتهم القاهرة بثروة فائقة ، [١١] بحيث اكتظت بالقصور والمنشآت الدينية كالجوامع والزوايا والمدارس ، والمنشآت الاجتماعية كالسبل والبيمارستانات والحمامات ، والمؤسسات التجاريـة كالاسواق والفنادق والوكالات • وقد اكتظت القاهرة بالمماليك وهم الطبقة الحاكمة والسائدة فى البلاد ومعظمهم من الترك والجراكسة ، ومن المواطنين المصريين ومنهم العلماء والتجـار وأصحاب الحرف والعامة من المسلمين وأهل الذمة ، فضلا عن الاجانب من التجار والسفراء والرحالة وغيرهم ؛ الذين وفدوا على مصر من مشارق الارض ومغاربها ومن البلاد الاسلامية والمسيحية سواء • وكثرت فى القاهرة فى العصر المملوكى الاحتفـالات والمواكب ، واتصفت الحياة اليومية فى شوارع القاهرة بكثرة الباعـة الجائلين ، هذا عدا المارة من النساء اللائى تمتعن بحرية واسعة فى الخروج من بيوتهن ، فكن يترددن على الاسواق لشراء ما يلزمهن أو يترددن على الحمامات العامة لاستكمال زينتهن ، وهناك يأنسن ببعضهن ويقضـين الساعات يتناقلن أخبار البيوت وأسرار العائلات [١٢] • واذا كان أهـل

---

(١١) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام، ص ٢٨٤ •

العصور الوسطى ، محاضرة القيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخيـة — المجلد الثامن عشر ، ١٩٧١ ، ص ١٧٣ •

القاهرة قد تعرضوا أحيانا لبعض الضيق والشدائد نتيجة لتسلط طائفة المماليك على عامة الاهالى من المصريين ، أو نتيجة لضيق اقتصادى بسبب انخفاض النيل وما ينجم عنه من ارتفاع الاسعار وانتشـــار الوباء ، أو نتيجة لفتنة بين طوائف المماليك وعصبياتهم ، فان ذلك كله لم يفقد أهل القاهرة روح المرح وتعدد وسائل التسلية والترويح عن النفس ، كالخروج الى الحدائق والى شاطىء النيل ومشاهدة خيال الظل والعاب الحـــواة والقردة وغيرها [١٣] . وقد قيل عن مجتمع القاهرة فى عصر ســـلاطين المماليك أنه كان ذا واجهتين ، أو بعبارة أخرى كان مزدوج الشخصـــيه ، ظاهره التقوى والتدين ، وباطنه الانم والفساد . فرغم أن القاهرة صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن سقطت فى بغداد على أيدى التتار ، الامر الذى جعلها محورا لنشاط دينى فذ ، تشهد عليه كثرة المنشآت الدينيـــة الضخمة مثل الجوامع والربط والزوايا والمدارس وغيرها ، فقد انتشرت فيها من ناحية أخرى الامراض الخلقية المختلفة [١٤] ، وكان ذلك ناتجا عن اكتظاظ المدينة بالسكان ، ووفود نسبة كبيرة من الاغراب اليها ، وقيام طبقة حاكمة حديثة عهد بالاسلام بالاشراف عليها فضلا عن الثورة الكبيرة التى هبطت على ذلك المجتمع من عوائد التجارة وجعلت القاهرة عاصمة العالم التجارية ، وقد اعتبر ابن خلدون ان هذه الثروة الكبيرة كانت السبب وراء تلك الانحرافات [١٥] . وكان تحول التجـــارة العالمية عن مصر وعـــالم البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر من

---

(١٣) ابن اياس : محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٢ ، ص٣٤٧ .

(١٤) سعيد عبد الفتاح عاشـــور (دكتور) : المجتمـــع المصرى فى عصر السلاطين المماليك ، ص ١٥٣ .

(١٥) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، ص ٤١٨ .

أبرز العوامل التى أثرت على مدينة القاهرة وعلى النشاط الاقتصادى والاجتماعى لســـــكانها •

وقد ظهر تنافس شديد بين القاهرة والاسكندريه حتى نهاية العصور الوسطى فى بيع وتوزيع سلع الشرق وسلع الغرب من التجارة العالمية ، ولكن ظلت القاهرة نقطه تجميع السلع ، ومركز توزيعها شرقا للسلع الغربية وغربا للسلع الشرقية والمحلية ، نظرا لتوسط مركزها ، كما كانت أقصى ما يصل اليه التجار الاجانب الوافدين لمصر ، حتى أنه قد نص على ذلك فى المعاهدات التجارية بين مصر والدول الاوروبيـــة [١٦] • وقد خصصت بالقاهرة أحياء معينة لتجارة التوابل والعطور والسلع الشرقية والغربية ، وللتجار فيها مخازن وقياسر ووكالات وفنادق وأماكن خاصـــة لدوابهم ، لاسيما الوافدين من الشام أو بلاد العرب أو السودان وأحيانا من فارس • وقد زار القاهرة فى أواخر القرن الخامس عشر بعض الرحالة الاجـــانب ووصفوا مدى الازدهار التجارى الذى عاشته المدينة فى العصر المملوكى حتى بداية القرن السادس عشر [١٧] •

ويقترن بذكر القاهرة ميناؤها الهام على النيل عند بولاق والذى ظل الميناء الرئيسى للقاهرة على النيل حتى أواخر العصور الوسطى • وتدخل الميناء آلاف السفن المحملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب ، فتصله من الاسكندرية عن طريق فرع رشيد ، ومن موانى الشام عن طريق فرع دمياط ، ومن الجنوب سلع الحبشة والنوبة ، وموانى البحر الاحمر • ووجد

---

(١٦) Heyd, W. : Histoire du Commerce du fevant au Moyen Age, T. II., pp. 434, 435.

(١٧) Howe, Sonia : Op. Cit., p. 99.

بميناء القاهرة مخازن ومتاجر ووكالات واسعة ، كما وجد بها رجال الحكومة وعمال الجمرك بصفة دائمة لتحصيل الرسوم المستحقة على التجارة • ولجمركها باب خاص بالمسافرين تفحص فيه حقائبهم ويدفعون ١٠٪ عما فيها ، «ودوكين » للمسافر العادى ، وخمسة للحاج ، مع دقة مراقبتهم ، مما كان يشكل حصيلة كبيرة للخزانة المملوكية [١٨] •

أما بالنسبة لميناء الاسكندرية وأهميتها على طريق التجارة الدولية عبر مصر وعالم البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر ، فقد كانت بحكم موقعها على هذا البحر تفوق القاهرة فى اتصالها بأوربا مباشرة • وكانت المدينة تزدحم طوال العام بالاجانب الوافدين اليها للتجـارة أو للعبور للحج للاماكن المقدسة فى سيناء وفلسطين • وكان لدول أوربا وعالم البحر المتوسط بصفة خاصة قناصل وسفراء ووكالات وأحياء كاملة وفنادق بالاسكندرية يمارسون فيها حياتهم الخاصة فى حرية ، وكان السـلاطين المماليك قد سمحوا للحجاج العابرين بدخول الفنادق منذ أواخر القـرن الرابع عشر الميلادى بعد دفع رسم سنوى للسلطان • ومن أشهر الفنادق التى كانت تقوم بهذا النوع من الخدمات فندق اهالى مدينة ناربون ، وفندق البنادقة ، وفندق القطالونيين • وكانت الاسكندرية قد خلفت مدينة دمياط كميناء مصر الاول على البحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد أن هدم المماليك جزءا من الميناء وردموا فم بحر دميـاط حتى يأمنوا أى غزو أوربى منه ، لذا لم يعد فى استطاعة السفن الاوربية الكبيرة الوصول اليها ، وأصبحت ترسو بالبحر قريبا من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب النيلية بينها وبين الميناء •

---

(١٨) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٢٩ •

ولهذا شهدت مدينة الاسكندرية أروع أيامها فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وخاصة بعد عام ١٤٥٣ حتى أن ايرادات الحكومة كان معظمها من جمرك الاسكندرية التى كانت تتراوح يوميا فى فترات «مابين» الف وألفى دينار عدا رسوم السفن والسياح والحجاج •[١٩] والمدينة لاتقل اتساعا وأهمية عن اكبر مدن البحر المتوسط التجارية مثل البندقية وجنوة ومرسيليا ، ولها عدة أبواب يفتح أحدها الى الميناء حيث يوجد به مرسى البرج للسفن الوافدة من أوربا ، ومرسى السلسلة للسفن الوافدة من شمال افريقيا ، وتقل فيه رسوم الجمارك عن المرسى الاول • والى الشرق من ميناء الاسكندرية يقع ميناء (أبوقير) عند بحيرة تعرف باسم (رأس المعدية) ويتصل الميناء بقناة تصل للبحيرة • ويبعد الميناء حوالى ثمانية أميال شرقى الاسكندرية • وميناء أبو قير يعد مرفأ للسفن السورية القادمة للاسكندرية وتدخله السفن الصغيرة ، أما السفن الكبيرة • فتتصل به من البحـــر بواسطة القـــــــوارب [٢٠] •

وكانت لمدينة رشيد أهمية خاصة عند سلاطين المماليك ، حيث كانت الميناء الكبيرة للبحرية المملوكية مما جعل السلطان قونصـــوه الغـــورى (٩٠٧ — ٩٢٢هـ / ١٥٠١ — ١٥١٦م) يشيد بها سورا وأبراجا لحفظها • وكان محظورا دخول الاجانب الى رشيد نظرا لصفتها الحربية [٢١] ، وان كان السلطان الغورى قد سمح للتجار البنادقة بالدخول اليها والاستقرار فيها ، فضلا عن أقامة فندق لهم هناك ، نظرا لتفوق تجارتهم مع السلطنة

---

(١٩) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٣٠ •
(٢٠) نعيم زكى فهمى (دكتور) : نفس المرجع ، ص ١٣١ •
(٢١) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٩٥ •

على سائر الدول الاخرى (٢٣) • وقد نقل النشاط التجارى منا الى ميناء بلدة فوة التى تتصل بالاسكندرية بقناة ملاحية ظلت تستخدم حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادى • كما كانت تخرج من جنوبى رشيد قناة تصل الى ميناء البرلس بين رشيد ودمياط ، وهو مفتوح للملاحة طوال العام ، وله مدخلان الشمالى للسفن المسيحية والغربى للسفن الاسلامية وكانت الموانى تتبع نائب الاسكندرية الذى يحصل مندوبوه رسوم الدخول وشحن وتفريغ السلع • وقد اعتنى العثمانيون عقب فتحهم لمصر فى سنة ١٥١٧ بمدينة رشيد وقام بزيارتها السلطان سليم الاول (١٥١٢ — ١٥٢٠) وأنشأ بها الوالى العثمانى سليمان باشا الخادم (٩٣١ — ٩٣٤هـ / ١٥٢٤ — ١٥٢٧م) قيسارية وفندقا ، كما أنشأ داود باشا (٩٤٥ — ٩٥٥هـ/١٥٣٨ — ١٥٤٨م) فندقا آخر سمى خان داود باشا ، كما أنشأ على باشا فندقا عام (٩٥٦هـ / ١٥٤٩م) بالاضافة الى خانات أخرى بفوه ، كما عمر وكالة كبيرة فى رشيد (٢٣) •

ومن أشهر موانى مصر كذلك ميناء دمياط النهرى البحرى ، وهو مخرج تجارة مصر لمدن وموانى الساحل الشرقى للبحر المتوسط والاناضول وكريت وقبرص ، كما يتصل بالقوافل البرية الى موانى البحر الاحمر • ولا تدخل السفن ميناء دمياط مباشرة بسبب شدة التيار من النيل ، وكذلك لردم جزء من فم البحر عندها • انما يخرج من دمياط قناة الى بحيرة المنزلة حتى تدخل اليها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تنيس على

(٢٢) جيرار ، ب.س : الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٨ ، المجلد الرابع ، ص ٢١٠.

(٢٣) صلاح احمد هريدى على (دكتور) : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة رشيد فى العصر العثمانى ، دراسة وثائقية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان الثلاثون والواحد والثلاثون ، ١٩٨٣ — ١٩٨٤ ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

بعد سبعين ميلا من البحر المتوسط ومثلها من قناة دمياط ، وهى فى الواقع مركز تبادل السلع الواردة الى دمياط والصادرة منها • واشتهرت دمياط وضواحيها بخصوبة التربة ووفرة انتاج قصب السكر وصناعة السكر بصفة خاصة • وقد أرسل فرسان الاسبتارية فى رودس قنصلا لهم فى دمياط ليرعى الشئون التجارية ، كما وجد بدمياط عدد كبير من الاجانب اليونانيين والبنادقة والجنويين والفلورنسيين • وظلت قنصلية رودس قائمة حتى الفتح العثمانى لمصر عام ١٥١٧ (٢٤) • وعلى مقربة من دمياط يوجد ميناء البرلس الذى اشتهر بصيد البورى وتصديره مملحا الى رودس بصفة خاصة • وفى عامى ١٥٠٧ و ١٥٠٨ م دعا السلطان قونصوه الغورى التجار الفلورنسيين لزيارة دمياط والاسكندرية والبرلس • وفى بداية القرن السادس عشر كان للبندقية قنصل فى البرلس لرعاية النشاط التجارى للبنادقة هناك (٢٥) •

هذه هى أبرز موانى مصر المطلة على البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين ، بالاضافة الى القاهرة عاصمة السلطنة المملوكية التى كانت مركزا للتجارة العالمية آنذاك •

اما بالنسبة لموانى مصر المطلة على البحر الاحمر فقد كان فى مقدمتها ميناء السويس ، الذى كانت تصل اليه السفن التجارية الصغيرة من ميناء جدة وعدن محملة بالتوابل والعطور والعقاقير والاحجار الكريمة والعنبر والمسك ، ثم تحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء الى القاهرة ، ثم بالنيل الى الاسكندرية • على ان هذا الميناء التجارى لم يلبث ان تحول واصبح

---

(٢٤) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٢ •

(٢٥) Heyd, W. : Op. Cit., pp. 228, 229.

ميناء مصر الحربى على البحر الاحمر وبنيت به ترسانات السفن الحربية والتجارية القاصدة الى المياه الشرقية ، ومنه تحركت سفن الاسطول المملوكى لمحاربة البرتغاليين فى المحيط الهندى فى مطلع القرن السادس عشر ، وكذلك سفن الأسطول العثمانى خلال القرن المذكور [٢٦] . وعندما صارت السويس مرفأ مصر الحربى على البحر الاحمر فقد استقر رأى السلطات المملوكية على أن يحل ميناء الطور محلها فى التجارة فضلا عن ميناء القصير الذى يربطه طريق القوافل الى قنا على نهر النيل ومنها الى القاهرة . وقد اتبع فى ميناء الطور نفس النظام الذى كان لميناء السويس فسفن الهند لا تصله انما تفرغ حمولتها فى عدن وفيما بعد فى جدة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ثم تنقل السلع الى الطور بالقوارب ومنها بالقوافل الى القاهرة . وكانت سفن التجاره الهندية تصل الى جدة مرتين فى العام ، وفى كل مرة ينشط العمل فى ميناء الطور [٢٧] . وفضلا عن اهمية الميناء التجارية فهو المحط الرئيسى للحجاج المسيحيين الوافدين لمصر من دير سانت كاترين بسيناء ، وللحجاج المسلمين المتوجهين الى مكة والمدينة المنورة . وكان الحجاج المسيحيون يهتمون خاصة بمواعيد وصول سفن التجارة الى الطور ، نظرا لان البندقية كانت تضع توقيتا لسفنها التجارية بالاسكندرية يتفق مع حساب فرق الوقت والتوزيع من الطور للقاهرة ثم للاسكندرية ، وحتى يستطيع الحجاج المسيحيون القاصدون أوربا اللحاق بقوافل التجارة الى القاهرة والرحيل الى أوربا على سفن البندقية التى تنتظر المتاجر فى الاسكندرية [٢٨] .

---

(٢٦) Hammer, J. : Histoire de L' Empire Ottomane,,Tome 5, pp. 301, 302.

(٢٧) Heyd, W. : Op. Cit., pp. 440, 442 .

(٢٨) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

وتجدر الاشارة كذلك الى التجارة التى كانت ترد الى مصر والشام من الجزيرة العربية والتى كانت تختلف عن طبيعة منتجات وادى النيل • فالجزيرة العربية كانت تحتاج الى المنتجات الزراعية بوادى النيل الخصيب كالحبوب بانواعها ، بينما كانت الجزيرة العربية تصدر الى مصر والشام البن الذى تجود زراعته فى بلاد اليمن • وبالاضافةالىذلككانت هناك فى الجزيرة العربية حركة تجارية كبيرة للسلع الهندية كالتوابل واعشاب التى تصلح كعقاقير فضلا عن نوعيات الاقمشة التى كان يحضرها التجـــار الاسيويون من بلادهم [٢٩] • الى مكة والمدينة المنورة وخاصة فى موسم الحج • وكان ميناء القصير وميناء السويس يستقبلان كثيرا من تلك السلع الاسيوية الواردة الى الجزيرة لعربية ، كما كانتا تصدران الى الجزيرة القمح والدقيق والفول والعدس والسكر والزيوت ، وكان عرب الجهات القريبة عرب الطور ، وعرب الحويطات يترددون على السويس للبيـــع والشراء ، فيبيعون لاهلها سلع البادية من سمن ونحوه ، ويشترون سلع المدينة من ثياب وغيرها • وكانوا يكثرون بها فى موسم الحج خاصة لبيـــع بضائعهم للحجاج ثم يعودون الى اقاليمهم • وقد غلب على سكان السويس عنصر التجار ووكلائهم ، فكان يقيم بها وكلاء عن تجار القاهرة والاسكندرية ووكلاء عن تجار الهند واليمن والحجاز والسودان [٣٠] •

وجدير بالذكر ان طريق الحج كان سببا فى احياء موانى الســويس والقصير والطور وعدم هجرهم حتى بعد تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس

---

(٢٩) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٣٥ — ١٣٦ •

(٣٠) ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتوره) : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ادان العصر العثمانى ، ص ١١٢ •

عشر الميلاديين (٣١) • اذ ظلت السويس معبرا لتجارة مصر مع بلاد اليمن والحجاز والتى تجمعت فيها سلع كثيرة شرقية أحضرها معهم الحجاج من سائر انحاء آسيا وافريقيا (٣٢) • فكانت كل هذه المتاجر تمر بالسويس ومنها على ظهور الدواب الى القاهرة ، وكانت تصل الى السويس مجموعات عديدة من السفن على مدار العام • وكانت السويس مقرا لجمرك هـام يقيم فيه المقومون المثمنون الذين يقدرون اثمان البضائع ، فيؤخذ على المائة عشرة • ومن البضائع التى كانت ترد الى ميناء السويس الحـرير الهندى ، والقطن الهندى ، والقطن السواكنى ، والفلفل ، والحبهـان ، والبن ، والزنجبيل ، والقرفة ، وجور الطيب ، وجوز النارجيل ، والنيلة الهندية ، والعقاقير ، والقلويات المستعملة فى الصابون والفحم السيال ، والسمن الشيحى ، والكافور ، واللالىء ، والطيور والقرود ، والظباء ، والغنم البريـة •

ولما كانت رياح الجنوب تسود عادة البحر الاحمر منذ بداية ديسمبر وحتى منتصف فبراير ، فان موسم ارسال السفن الشراعية يتم تجـاه الشمال من جدة وينبع الى السويس• وفى بقية العام تهب الرياح من المنطقة الشمالية ، وعندئذ يمكن ارسال السفن تجاه الجنوب من السويس الى الجزيرة العربية • وعندما تكون الرياح مواتية تصل السفينة من جدة الى السويس فى خمسة عشر او ستة عشر يوما ، فى حين ان المدة التى تستغرقها الرحلة العادية تبلغ عشرين او اثنين وعشرين يوما ، وتكون خمسة وعشرين

---

(٣١) Crouchley, M. E.: The Economic Development of Modern Egypt, P. 34.

(٣٢) Shaw, S. J.: The financial and administrative orga nization and developmeut of Ottoman Egypt, 1517 - 1798, P. 138.

او ستة وعشرين يوما بالنسبة للسفن القادمة من ينبع [٣٣] •

وبالنسبة لعملية نقل البضائع الواردة من السويس الى القاهرة ، فقد كانت تحتكر نقلها اربعه قبائل نسلك كل منها طريقا مختلفا هى قبائل طرابين ، والحويطات ، وعرب الطور ، والعايدي • ويقدم هؤلاء العرب الجمال بحماليها ، وعددا مناسبا من قائدى الجمال الذين يخضعون لاوامر شيخ العرب • ويحمل الجمل الواحد من السويس الى القاهرة من خمسة الى ستة قناطير من البن ، وكانت فى السويس ثمانى عشرة وكالة مخصصة لسكنى التجار الاجانب ولكى يستخدمونها كمخازن • وكانت شوارع بندر السويس نظيفة ومبانيها منتظمة وبها ثلاثة ميادين ، وقد أثر النشاط التجارى على المدينة فبدت أفضل من غيرها من المدن المصرية فى القرن الخامس عشـــــــر •

وتجدر الاشارة الى أن السويس كانت فى نهاية القرن الخامس عشر مقر لجمرك هام عرف باسم « جمرك عشور أصناف بهار وتوابعها » ، وكان هذا الجمرك يثرى الخزانة المملوكية الى جانب جمرك الاسكندرية وجمرك رشيه وجمرك دمياط وجمرك البرلس ، وكان الاخير يختص بالمتاجر الواردة من الدلتا ومن الصعيد •

كذلك كانت تصل الى مصر عن طريق الصعيد القوافل التجارية الاتية من داخل افريقيا مثل قافلتى دارفور وسنار [٣٤] ، وكانتا تسهمان فى تجارة الرقيق والعاج والصمغ ، والتمر هندى ، وجلود الكركدن • وتصل

---

(٣٣) ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتوره) : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ابان العصر العثمانى ، ص ١٢١ •

(٣٤) صلاح هريدى على (دكتور) : دور الصعيد فى مصر العثمانية (٩٢٣ — ١٢١٣هـ / ١٥١٧ — ١٧٩٨ هم) ، ص ٢٧٨ .

هذه القوافل الى أسوان التى كانت ميناء هاما على النيل عبر العصور — ثم تصل الى أسيوط حيث كانت تفرض عليها ضرائب تقدر على الرقيق والجمال وما تحمله من سلع . ثم تنقل البضائع بعد ذلك فى قوارب عبر النيل الى القاهرة . وكانت تباع فى أسيوط معظم الجمال التى تصاحب القوافل ويحتفظ بما يقرب من خمس عددها ليستخدمه التجار فى رحلة العودة الى دارفور وسنار ، وكانت تتم الرحلات مرات عديدة فى كل عام . وكان التجار الافارقة يحملون معهم من القاهرة فى رحلة العودة الى بلادهم السلع المختلفة من الاقمشة ولوازم الخيول ، والبن ، والسكر والاسلحة والمعادن والزجاج الملون ، وكان بعض هذه السلع يصل الى مصر من أوربا عن طريق البنادقة (٣٥) .

وكانت تربط السلطنة المملوكية بملوك افريقيا علاقات تجارية مع بلاد التكرور أو مالى ، وسلطنة برنو أو كانم ، ومملكة غانة ، ومملكة سنغاى . ومن أشهر تجارة المماليك مع دول افريقيا الصناعات المصرية على وجه الخصوص ، مثل تطعيم المعادن والجواهر ، أو ما كان يطلق عليه الترميك أو التكفيت ، وهى صناعة دقيقة أصبح للقاهرة أسلوب خاص فيها فى صناعة الاوانى النحاسية ، كالاباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج . وكذلك صناعة السرج التى كانت لها سوق خاصة ، وصناعة السجاد التى بلغت غاية الرقى ، وصناعة الزجاج ، وان كان أشهرها على الاطلاق صناعة الاقمشة التى كانت تصنع فى مصانع النسيج الحكومية المسماة طراز .

وتجدر الاشارة كذلك الى طرق القوافل التى كانت تربط بين بلدان

---

(٣٥) Crouchley, M. E. : Op. Cit., PP. 33, 34.

المغرب العربى المطلة على الجانب الغربى من البحر المتوسط ومصر ، وهى تلك الطرق التى تسلكها قافلة الحج والتى تمر باقاليم المغرب الساحلية المختلفة [٣٦] . وقد كانت هذه القافلة فى نفس الوقت هى قافلة تجارية نظرا لان الحجاج المغاربة كانوا يحملون معهم اسلع المغربية ليبيعوها فى المدن والقرى المصرية التى يمرون بها أثناء رحلتهم ، وكذلك يفعلون فى المدن الشامية فى شرقى البحر المتوسط ، وفى موانى ومدن الحجاز . وفى طريق عودتهم من رحلة الحج كان التجار المغاربة يحملون معهم السلع الشرقية المختلفة من حجازية وهندية وشامية ومصرية ليبيعوها فى بلادهم علهم يحققون ربحا يعوض لهم ما أنفقوه فى رحلة الحج [٣٧] .

بل انه قد وجد كذلك طريق اخر كانت تتبعه قافلة فزان المغربية ،عن طريق الصحراء الغربية ، فواحات الخارجة ، فاسيوط ، فالقاهرة [٣٨] . وكانت هذه القافلة تأتى بالبلح والطرابيش الصوفية ، وتعود محملة بالمنتجات المصرية ، وما تجمع فى مصر من تجارتها مع الجزيرة العربية [٣٩].

على ان كثير من المغاربة استقروا فى مصر وعملوا فى مجالات التجارة والحرف بها ، ويرجع ذلك الى الظروف التى تعرضت لها بلاد المغرب فى

---

(٣٦) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر (فى العصر العثمانى (١٥١٧ — ١٧٩٨) ، ص ٢٦ — ٢٧ .

(٣٧) ليلى صباغ (دكتوره) : الوجود المغربى فى المشرق المتوسط فى العصر الحديث ، ص ٨٩ .

(٣٨) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية ابان العصر العثمانى (١٥١٧ — ١٧٩٨) ،المجلة العربية للعلوم الانسانية ، تصدر عن جامعة الكويت ، العدد التاسع ، المجلد الثالث ١٩٨٣ ، ص ١٤ — ١٥ .

(٣٩) Crouchley, M. E.: Op. Cit., PP. 33, 34.

نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثه مما جعل المغاربة من أبرز الجاليات الاسلامية فى مصر العثمانية • وقد لعبت المدن المغربية دورا هاما فى التجارة العالمية فى نهاية العصور الوسطى وخاصة فى عهد الموحدين (٥٤١ — ٦٦٧هـ / ١١٣٠ — ١٢٦٩م) حيث كانت بلاد المغرب تموج بنشاط تجارى داخلى وخارجى ، واسع النطاق ، فسارت القوافل متواصلة مابين البلدان المغربية ، وافريقيا والسودان ، لاستيراد المواد الاولية والاستوائية ، وكذلك الذهب والرقيق ، كما كانت طرق التجارة مع بلدان المشرق الاسلامى ، البرية والبحرية ميسره حيث كانت تمر عبر أراضى مصر وموانيها التى تحتل موقعا وسطا • وكانت المدن والموانى المغربية هى المصدر الاول للمدن الايطالية وغيرها من بلدان أوربا الراغبة فى التجارة الافريقية والشرقية • وقد أثرت المدن ثراء ضخما من وراء هذا النشاط التجارى ، على أساس أنها اصبحت تقوم بدور الوسيط فى نقل السلع الافريقية والشرقية • وقد أثرت المدن اثراء ضخما من وراء هذا النشاط والنشاط التجارى اللذين حظيت بهما بلدان المغرب العربى ، الى الموقع الجغرافى الخاص الذى احتله المغرب ، وأثر تأثيرا بالغا فى تطور المسالك التجارية المغربية جنوبا وشمالا ، وغربا وشرقا ، مما جعل مساهمة بلدان المغرب الاسلامى فى التجارة العالمية ذات أهمية بالغة ، كما كان لهذا الموقع أثره فى علاقات بلاد المغرب الحضارية بمنطقة البحر المتوسط وخاصة بمصر • على أن العامل الاقوى وراء دور المغرب الاسلامى التجارى والحضارى فى منطقة البحر المتوسط — مع عدم انكار أهمية الموقع الجغرافى — انما يرجع الى أستمرارية اتصاله بالمشرق الاسلامى ، حضاريا وثقافيا ،وتجاريا هذا الى جانب الثنائية الاقتصادية التى شهدها المغرب العربى فى العصور الوسطى ، من ارتباط الفلاحة بالتجارة ، نظرا لان كثيرا من المواد الفلاحية،

أصبحت بضائع أساسية فى قائمة التبادل التجارى ، ولاسيما بالنسبة للتجارة الصحراوية مثل : الحبوب ، والتمور ، والزبيب ، والصوف، وقصب السكر وغيرها . بالاضافة الى الاستقرار السياسى الذى عرفه المغرب فى بعض فترات تاريخه فى العصر الوسيط الاسلامى ، حيث ساهم هذا الاستقرار فى تطور المسالك التجارية وأمنها . ولم تحل النظم السياسية المختلفة دون الالتحام بين مراكز التجارة فى البلدآن المغربية ، بل انها حاولت ان تحقق لها الامن وتستغلها اقتصاديا فى تدعيم مركزها السياسى والتجارى [٤٠] . على أن الجزء الاكبر من عائد هذا النشاط التجارى الذى شهدته بلدان المغرب ، عاد الى فئات بعينها دون عامة الشعب ، وبخاصة فئة الحكام والرؤساء ، وفئة التجار ، التى ظهرت كفئة اجتماعية جديدة حيث عاش سكان المراكز التجارية معيشة فيها شىء كثير من الرفاهية والرخاء ، بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة لسكان الريف والمناطق الصحراوية [٤١] .

وتجدر الاشارة الى أن المغرب العربى قد تعرض للتفكك السياسى بعد انهيار دولة الموحدين (فى سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م) فى جميع بلدانه ، حيث أصبح هناك ثلاث دول مسيطرة هى الدولة الحفصية فى تونس ، ودولة بنى زيان فى الجزائر ، ودولة بنى مرين فى مراكش ، وكان النزاع بين هذه الوحدات السياسية التى انقسم اليها المغرب مستمرا،هذا الى جانب طرابلس التى قام النزاع بينها وبين الحفصيين ، بل ان النزاع كان قائما فى داخل

---

(٤٠) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ١٢ — ١٤ .

(٤١) جلال يحيى (دكتور) : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، ص ٥ .

الدولة الواحدة ، كما كان يحدث فى المناطق الشرقية من الجزائر وفى منطقة بلاد القبائل . وسوف يؤدى هذا التفكك السياسى والصراع الداخلى الى هجرة كثير من المغاربة الى المشرق عامة والى مصر بصفة خاصة حيث عملوا فى مجال التجارة والحرف فى الاسكندرية وغيرها من موانى الجانب الشرقى من البحر المتوسط ، فضلا عن كثير من المدن الداخلية . وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته الى أن نزوح كثير من أهل المغرب الى مصر انما كان يعود الى حالة الرفاهية التى كانت تشهدها مصر فى العصر المملوكى نتيجة لمرور التجارة العالمية بها فيقول : « ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من انترف والغنى فى عوائدهم ما يقضى منه العجب ، حتى ان كثيرا من الفقراء بالمغرب ، ينزعون من النقلة الى مصر لذلك ، ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها » (٤٢) . ولهذا فان معظم التجار والحرفيين المغاربة ، والقبائل المغربية ، الذين وفدوا الى مصر واستقروا فيها أو مارسوا نشاطهم لفترة وعادوا الى بلادهم كانوا من أبناء المدن والمناطق المغربية التى أصيبت بنكسة اقتصادية سواء نتيجة لعمليات الغزو الاسبانى أو بسبب الصراعات الداخلية . وقد استقر هؤلاء فى مدن مصر وريفها ومارسوا نشاطاتهم المختلفة من تجارية أو حرفية أو رعوية أو زراعية ، كما تزود بعضهم بزاد المعرفة والعلوم الدينية فى الازهر الشريف، فى وقت انتشرت فيه الفرق الصوفية المتعددة التى جعلت أتباعها يتتلمذون على أيدى رجال الطرق الصوفية من المصريين . كما ان رغبة كثيرين من المغاربة لاداء فريضة الحج أدت الى توجههم الى مصر وبلاد المشرق بصفة

---

(٤٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٦٢ .

مستمرة واشتراكهم الواضح فى الحياة الاقتصادية والثقافية مع المصريين وأهالى المشرق الاسلامى [٤٣] .

وتجدر الاشارة الى أن مدينة الاسكندرية كانت بالنسبة للمغاربة محطة أساسية لهم حيث كانت تقع على طريق الحج والتجارة ولهذا فانهم أنشأوا واستأجروا بها الوكالات والمخازن لتخزين السلع التى يجلبونها من الهند والشرق الاقصى وموانى شبه الجزيرة العربية والموانى الواقعة فى الجانب الشرقى من البحر المتوسط كما كون المغاربة تنظيماتهم الاجتماعية فى الاسكندرية وأخذوا يؤدون دورهم فى بيئتها الحضارية فى العصور الوسطى [٤٤] والحديثة . وينطبق اهتمام المغاربة بالاسكندرية على موانى مصر الاخرى الواقعة على البحر المتوسط مثل رشيد ودمياط ، او تلك الواقعة على البحر الاحمر مثل السويس والقصير . بل انهم ربطوا هذه الموانى عن طريق عمليات الاستيراد والتصدير بالموانى التجارية العربية الاخرى والموانى الاوربية التى كان لهم فيها وكالات تجارية ، كما كان لهم وكلاء يقيمون بهذه الموانى [٤٥] .

وتجدر الاشارة كذلك الى الجاليات الاجنبية الاخرى التى كان لها نشاطا تجاريا ملحوظا فى الموانى المصرية المطلة على البحر المتوسط والتى لقيت عناية كبيرة من قبل المماليك فى نهاية العصور الوسطى والعثمانيين

---

(٤٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٢٧ .

(٤٤) سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : الاثر المغربى والاندلس فى المجتمع السكندرى فى العصور الاسلامية الوسطى ، ص ٢٠٧ .

(٤٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٥٨ .

فى العصور الحديثة • فقد أنشأت السلطات المملوكية على نفقتها فنادق خصصتها للتجار الاجانب • وكانت الاسكندرية تضم عدة فنادق لجاليات أجنبية مختلفة ، أولاها وأهمها جالية البنادقة ، ولهم فندقان ، على حين كان فندق واحد لكل من أهل جنوه ، وبيزا ، وفلورنسا ، وأنكونا ، وبالرمو، وكان لاهل نابلى فندق بالاشتراك مع آخرين من الايطاليين • أما الفرنجة فكان لهم فنادق خاصة بهم ، ولاسيما أهل مرسيليا وناربون وقطالونية وراجوزة • ورغم أن جزيرة كانديا كانت احدى مستعمرات البندقية الا انه وجد لها فندق خاص • وكان لمملكة قبرص قبل غزوة بطرس لوزينان وليونان الاسكندرية فندق ، وللاتراك فندق ، وكذلك فندق لكل من المغاربة ، والتتار والمعروف أن التتار بصفة خاصة كانوا يجلبون الرقيق للتجارة فيهم ولذا كان فندقهم عبارة عن سوق للرقيق (٤٦) •

وحرصت السلطات المملوكية كذلك على رعاية الشئون الروحية للجاليات الاجنبية فسمح لهذه الجاليات ببناء الكنائس فى نطاق الفنادق المشار اليها ، فكان لكل فندق كنيسة ، ولكل جالية قساوستها ، بينما كانت للجاليات الكبرى كنائس كبرى مثل كنيسة القديس نيقولا لاهل بيزا ، وكنيسة القديسة ماريالك للجنويين ، وكنيسة القديس مشيل للبنادقة (٤٧) • وقد ظل هذا الحال على ما هو عليه فى عهد العثمانيين فى العصور الحديثة •

وكانت سفن البنادقة والجنويين تنقل المتاجر من مصر والشام الى أوربا فى العصور الوسطى ، وكانت سفن البنادقة بصفة خاصة تحمل الجزء

---

(٤٦) ابراهيم على طرخان (دكتور) : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ١٣٨٢ — ١٥١٧ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ •

(٤٧) Heyd, W.: Op. Cit., p. 433.

الاكبر من تجارة الشرق الى ميناء البندقية[٤٨] ، حيث تعرض فى سوق « ريالتو Rialto » هناك ، لتباع فى المزاد العلنى للتجار الالمان والانجليز وغيرهم • وكان سوق « ريالتو » الكبير فى البندقية من أشهر الاسواق التجارية فى حوض البحر المتوسط ، حيث كانت المتاجر الشرقية توضع فى عربات وتزحف بها من هذا السوق متجهة الى أنحاء أوربا عن طريق سهل لومبارديا ، وممرات جبال الالب ، وطريق الراين ، لتصل أخيرا الى تجار التجزئة فى شتى البلاد الاوربية ليتلقفها المستهلكون هناك[٤٩] • واستطاعت جمهورية البندقية أن توطد علاقاتها مع سلاطين المماليك —الذين كانوا يحكمون مصر والشام والحجاز — وان تحتكر معظم المتاجر الشرقية الواردة الى مصر عن طريق البحر الاحمر أو الواردة الى موانى الشام عن طريق الخليج العربى والعراق[٥٠] •

وقد أنشأت جمهورية البندقية ستة أساطيل بحرية من طراز واحد كانت تمخر عباب البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر ، وعينت لكل منها الموانىء التى يتردد عليها ، واستهدفت من توحيد طراز سفنها أن يكون فى استطاعة قناصلها ووكلائها فى موانى البحر المتوسط امداد السفن بما تحتاج اليه من قطع غيار ذات طراز واحد • وجنت البندقية أرباحا خيالية من نقل التجارة الشرقية الى أوربا ومن تصريفها هناك • وأصبح الالتحاق بالبحرية مطمحا ترنو اليه أنظار الشباب من أهل البندقية الذين رأوا فى البحرية المجال الطبيعى للمال والشهرة والمجد •

---

(٤٨) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٥٠ •

(٤٩) عبد العزيز الشناوى (دكتور) : اوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، جـ١ ، ط٢ • ص ١٠٧ •

(٥٠) محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ص ٦٠ •

ولقيت البندقية منافسة شديدة من جمهورية جنوة فى ميادين التجارة الشرقية ، وتطورت هذه المنافسة التجارية الى صراع سياسى حاد لعب فيه البحر المتوسط دورا حاسما . وتراءت لهاتين الجمهوريتين الضرورة السياسية فى اخضاع البحر المتوسط أو على الاقل الجزء الهام منه بالنسبة لنشاطهما — لسيطرة أى منهما . وكانت نتيجة ذلك أن طالبت البندقية بتقرير سيادتها على البحر الادرياتيكى ، كما ادعت جنوة بحق السيادة على بحر ليجوريا . وقد قبلت أوربا بادعاءات هاتين الجمهوريتين لحاجتها الملحة الى التجارة الشرقية وبخاصة التوابل والعطور والعقاقير ، وبذلك ظهرت فى تاريخ العلاقات السياسية الدولية لاول مرة فكرة سيادة الدولة على البحار[٥١] . ولم يقف التنافس السياسى بين البندقية وجنوه عند هذا الحد ، بل قام بينهما صراع حربى بالغ العنف انتهى بهزيمة أهالى جنوة فى معركة « كيوجا Chioggia » وعلى أثرها عقد صلح « تورينو » سنة ١٣٨١م . ولكن جنوة راحت تفكر فى وسيلة أخرى لحرمان البندقية من مصادر قوتها وثروتها ، وذلك بايجاد طريق بحرى متصل تأتى منه السلع الشرقية الى أوربا[٥٢] . وهذا سيفسر التقارب الذى تم بينهم وبين البرتغاليين فى مطلع العصور الحديثة .

وتجدر الاشارة كذلك الى دور فلورنسا فى النشاط التجارى مع مصر والشام . خاصة وأن أسرة « ديميدنشى » الحاكمة فى فلورنسا فى نهاية العصور الوسطى عملت على توثيق صلاتها التجارية مع السلطات

---

(٥١) حامد سلطان (دكتور) : القانون الدولى العام فى وقت السلم ، ص ٥٦٧ — ٥٦٨ .

(٥٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : اوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، جا ، ط٣ ، ص ١٠٩ .

المملوكية[٥٣] . أما بالنسبة لاهالى فرنسا وأسبانيا فقد كانوا يحصلون على حاجتهم من المتاجر الشرقية من أسواق مصر وشرق البحر المتوسط عن طريق الوسطاء البنادقة والجنويين[٥٤] .

ونظرا لاشتغال البنادقة بالحجم الاكبر من التجارة الشرقية سواء من ناحيتى النقل أو التسويق فقد شكلوا أكبر جالية فى مدينة الاسكندرية فى نهاية العصور الوسطى ، كما كان لهم حى خاص . وكان يشرف على مصالحهم قنصل معين من قبل جمهورية البندقية . وكان حى البنادقة بالاسكندرية يضم فندقين وحماما ومخبزا وكنيسة ، كما كانت حكومة المماليك قد أعفتهم من عدة ضرائب وسمحت لهم بالتجارة فى اللآلىء والاحجار الكريمة والفراء . ولهذا لم يتردد البنادقة فى جلب كل ما تحتاج اليه مصر من السلع الخارجية ، حتى الادوات الحربية التى حرمت البابوية التجارية فيها ، كالاسلحة والحديد والاخشاب والرقيق والكبريت والقار وكذلك بعض المواد الغذائية كالحبوب والزيت ، وذلك رغم تشدد البابوات وتكليفهم فرسان الاسبتارية والداوية بمراقبة البحار ومنع وصول هذه المواد الى المسلمين[٥٥] . وقد زادت نسبة اهتمام البنادقة بالتجارة الشرقية بعد فتح الاتراك العثمانيين لمدينة القسطنطينية عام ١٤٥٣م . حين أضحت التجارة فى البلقان وموانى البحر الاسود صعبة ومحفوفة بالمخاطر، ولذلك وجه البنادقة عنايتهم الى حوض البحر المتوسط الشرقى ، ونشطت

---

(٥٣) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، أشار الى الامتيازات التجارية التى منحتها السلطنة المملوكية لطائفة الفرنتيين (أهالى فلورنسا) فى مصر والشام فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، الملحق ١٣ — ٢٥ ، ص ٤٣٩ — ٤٨١ .

(٥٤) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٥٥) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

أعمالهم التجارية فى موانيه ومدنه كالاسكندرية وبيروت وحلب ودمشق(٥٦) •
وكانت قوافل البندقية التجارية البحرية تصل الى مصر مرتين فى كل عام ، فى يناير وفى الخريف ، وكانت تتكون القافلة فى العادة ما بين ثمان سفن وثلاث عشرة سفينة ، وتقدر حمولتها بمليونى بندقى على أقل تقدير •
ولهذا تمتع البنادقة بالمكانة الاولى بين الجاليات فى الاوربية فى الاسكندرية طوال العصر المملوكى فى نهاية العصور الوسطى وأثناء العهد العثمانى فى مطلع العصور الحديثة(٥٧) •

وتجدر الاشارة الى أن العملة الاجنبية كانت متداولة فى أسواق مصر فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر • ومن أمثلة هذه العملة عملة البندقية والتى تعرف باسم « دوكات Ducat » نسبة الى دوك — وهو « الدوق Doge » • وكانت العملة الخاصة ببلاد الفرنجة فى فرنسا وايطاليا والاراضى المنخفضة المسماة الافرنتية ، جمع أفرنتى ، وهى التى تعرف « بالفولورين Florino » ، وان عرفت العملة الاجنبية بوجه عام باسم « مشخصة » ، وذلك بسبب صور القديسين وملوك الفرنجة المنقوشة على وجهيها(٥٨) •

وليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية فى أيام المماليك فى نهاية العصور الوسطى من وجود كلمات كثيرة تدل على ذلك ، مثل : دكاكين وحوانيت ومخازن وقياسر وخانات ووكالات وفنادق ، وهذه الاخيرة كانت

---

(٥٦) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، وقد أشار الى الاتفاقيات التى عقدها البنادقة مع السلطات المملوكية فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين الملحق ١—١٢ ص ٣٧٣ — ٤٨٠ •

(٥٧) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ص ١٤١ — ١٤٣ •

(٥٨) عبد المنعم ماجد (دكتور) : عصر السيوطى ، ص ٢٧ •

أكثرها تتكون من عدة طوابق ، عبارة عن غرف مختلفة ومخـــازن ، لها فناء داخلى ، يحتوى على البضائع والدواب ، ويسكنها غالبا التجار الاجانب ، يرأسهم القناصلة — مفردها قنصل — وهم كبار الفرنج ، فكانت الفنادق توجد فى كل أنحاء المدن المصرية من الاسكندرية الى أسوان[٥٩] .

وتجدر الاشارة الى مظهر الثراء فى عصر الدولة المملوكية والبـــذخ الذى عاشته الطبقة المملوكية بالذات ، وعلى رأسها السلطان المملوكى ، حتى أنه من كثرة الاموال كانت له خزانة عرفت « بخزانة الخاص » ، كما أصبحت القلعة — مقر الحكم المملوكى — تتكون من قصور عظيمة ، شبهت بأجنحة تطل على القاهرة . ثم هذه المنشآت الضخمة التى تركها معظم السلاطين المماليك ، من جوامع كجامع السطان حسن وبرقوق والمؤيد — وزوايـــا ومدارس وسبل وبيمارســـتانات وحمـــامات وقـــلاع — كقلعـــة قايتباى بالاسكندرية — وتحف مازالت تحتل الصدارة بين آثار مصر الاســـلامية ، وأصبحت القاهرة فى العصر المملوكى درة فى جبين الشرق . كما ظهرت دلائل البذخ فى حياة القصور والحفلات[٦٠] التى طبعت بطابع الاناقة المعبرة عن الانتعاش الاقتصادى الذى ظهر فى شـــكل ثراء وبذخ نادرين ، وحتى فى ابداع الصناعة والحرف والفنون وفى ازدهار الحياة الاجتماعيـــة . وكان مصدر هذا الثراء التجارة العالمية العابرة بمصر آنذاك ، وما يفرض عليها من ضرائب متنوعة ، ولهذا سوف تتأثر الحياة الاقتصـــادية بهـــذا الثراء العظيم الذى يتمتع به سلاطين المماليك ، فكانت وطأتهم فى فرض الضرائب

---

(٥٩) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، اخر سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة للاسباب التى انهت حكم دولة السلاطين المماليك فى مصر ، ص ٧٧ .
(٦٠) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣،ص١٢٦ .

الداخلية وجمعها فى أحيان كثيرة تخف على الزراع والصناع والتجار نوعا ما ، وفى هذا تخفيف كبير عن كاهل الرعايا وعلى الاخص الطبقات الفقيرة وبخاصة الفلاحين ، كما فيه تشجيع للزراعة والصناعة ، وانتشار التجارة (٦١) • غير أن الامر سيتغير عما كان عليه عقب وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ وتحويلهم الحجم الاكبر من التجارة العالمية عن مصر والشام والبحر المتوسط الى هذا الطريق الجديد •

وجدير بالذكر أن أسعار السلع الشرقية كانت ترتفع ارتفاعا فاحشا بسبب الضرائب الجمركية الباهظة التى كان يفرضها حكام الدول الشرقية الواقعة على الطريق من أماكن تصديرها الى الشواطىء الاوربية وبخاصة سلاطين المماليك ، فقد كانوا يفرضون رسوما جمركية عند تفريغ البضائع من السفن فى السويس ، ورسوما جمركية أخرى عند اعادة شحنها فى الاسكندرية • وكانت هذه الرسوم تبلغ سدس قيمة السلع عند مرورها فى كل من المدينتين • هذا فضلا عن أجور نقلها وأخطار النقل كأعمال القرصنة والحروب وتنوع وسائل النقل عبر الصحارى والبحار • ومع ذلك فقد كانت متاجر الشرق أوفر انواع التجارة ربحا ، وقد عاش كثير من التجار الاوربيين عيشة الملوك من الارباح الخيالية التى كانت تدرها تلك التجارة (٦٢) • على أن ثمة اجراءات كان لابد من اتخاذها عند استقبال السفن التجارية فى الموانى المملوكية فى مصر والشام والمطلة على البحر المتوسط فى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة • ولدينا مثال

---

(٦١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : معالم التاريخ الاوربى الحديث والمعاصر ، ص ٥٢ •

(٦٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : اوربا فى مطلع العصور الحديثة، جا ، ط٣ ، ص ١١٠ •

عن الاجراءات التى تتخذ فى احدى هذه الموانى وهو ميناء البرلس • فالمعروف ان للبرلس مينائين ، أحدهما جديدة ومفتوحة من ناحية الشمال لاستقبال السفن المسيحية ، والميناء القديمة مفتوحة من جهة الغرب لاستقبال السفن الاسلامية فقط ، وهذا المدخل الاخير مقفل أمام المسيحيين حتى ولو كانوا واصلين من جهة البر • وعندما تصل السفينة الى الميناء ويستقبلها رجال من موظفى الميناء ، يصعدون عليها ، وهؤلاء عادة مندوبين من قبل نائب الاسكندرية ، وتتلخص مهمتهم فى اثبات جنسيتها عن طريق القنصل الذى تتبعه أو عن طريق مواطنيهم المقيمين بالثغر ، ومعرفة عدد ركابها وأسمائهم وأنواع السلع التى معهم ، ثم يرسل هؤلاء الموظفون هذه البيانات الى نائب ثغر الاسكندرية ، فيبلغها بدوره الى السلطان بالقاهرة • ويتم تبادل الرسائل بواسطة بريد الحمام الزاجل • فاذا تمت هذه الاجراءات ، على التجار ان يدفعوا رسما مقررا كضمان ، قدره دوك واحد (Ducat) زاد بعد ذلك الى اثنين عن كل رأس منهم ، ويدفع كل منهم رسما اخر قدره ٢٪ بالنسبة لما معهم من النقود ، ثم يسمح لهم بعد ذلك بالنزول الى الميناء ، حيثيجدون المأوى للاقامة ، والمخزن لبضائعهم ، فى الفندق الخاص لمواطنيهم من بنى جنسهم •

وكان هؤلاء التجار — فى العادة — يعملون فى تسويق منتجات بلادهم كما يشترون ما يلزمهم من المتاجر الموجودة فى مصر والسلع المنتجة فيها ، وتلك التى ترد اليها من الشرق ، وكانت الاخيرة تدر عليهم أرباحا طائلة ، كما كانت تدر أرباحا طائلة أيضا على السلطات المملوكية • اذ فرضت حكومة المماليك الرسوم المقررة على التجارة المارة ببلادها ، وذلك بجانب رواج التجارة الداخلية فى هذه السلع وما يترتب على ذلك من فوائد للحكومة المملوكية • ولكى تحصل مصر على مزيد من الربح من التجار الشرقية ،

اتبع السلاطين المماليك سياسة الاحتكار وزادوا فى رسوم المرور • اذ بدأ السلطان برسباى احتكار تجارة التوابل ، وأصدر لهذا الغرض مرسوما فى عام ١٤٢٨ يحرم به شراء التوابل من غير مخازن السلطان • وفى نفس الوقت أجبر تجار الشرق على شراء البضائع التى تبيعها مصر بسعر مرتفع مثل العقيق والنحاس وغيرهما من السلع الرائجة • وساعد على تنفيذ سياسة الاحتكار أن الحكومة المملوكية كانت تجبى رسومها عينا ، وقد ترتب على ذلك ارتفاع أسعار السلع الشرقية ارتفاعا باهظا مثل التوابل والحرير على وجه الخصوص • فمثلا صار التجار الاوربيون يشترون قنطار الفلفل الاسود بسعر يتراوح بين ١٢٠ — ١٣٠ دينارا ، بعد أن كانوا يشترونه من قبل بسعر ٥٠ دينارا فى القاهرة و٨٠ دينارا فى الاسكندرية (٦٣) •

وقد ضج التجار الاوربيون من مغالاة المماليك فى احتكارهم للتجارة الشرقية وفرضهم المكوس الباهظة عليها • وجاء أول احتجاج من جانب القطلانيين عام ١٤٣٢ حين أبلغ ممثلوهم السلطان برسباى أنهم رفضوا شراء البضائع من مخازن السلطان ، غير أنهم لم يظفروا باجابة طيبة مرضية ، لان برسباى لم يغفر لهم ما فعله قراصنتهم • كذلك احتجت مملكتا قشتاله وأرغونة ، وقابلتا هذا الاجراء بمثله ، وذلك برفع أثمان السلع الاوربية التى ترد الى مصر • بل أن البنادقة أخذوا يفكرون فى قطع علاقاتهم التجارية مع مصر فأرضاهم السلطان وأن لم ينزل عن احتكاراته • وحدث أن هاجمت أرغونة وقشتاله السفن المملوكية على سواحل سوريا فأجاب

---

(٦٣) Wiet, G.: L Egypte Arabe, Histoire de La Nation Egyptienne, TV., pp 574, 576.

السلطان بالقبض على التجار البنادقة فى الاسكندرية وصادر متاجرهم (٦٤)

ورغم أن حدة الاحتكار الحكومية قد خفت فى عهد السلطان جقمق ، الا أن معاملة التجار الاجانب لم تستمر على حال واحد طوال عهود السلاطين بعد جقمق ، حتى ضاق التجار ذرعا بهذه المعاملة • وهذا مما حملهم على الانتقام فى عام ١٤٧٥ م ، اذ احتالوا على بعض تجار الاسكندرية مـن الوطنيين وأسروهم وخرجوا بهم الى بلادهم • وكان من بين هؤلاء التجار الاسرى بعض تجار السلطان قايتباى ولذلك أمر قايتباى نائبه فى الثغـر بالقبض على جميع التجار الاجانب فيه وأمرهم بمـكاتبة ملوكهم ، ثم استطاع التجار المصريون أن يفدوا أنفسم بالمال (٦٥) •

على أن الحكومة المملوكية ظلت تجبى مكوسا على التجارة الشرقية وصلت نسبتها الى العشر ، غير أن هذه النسبة زيدت تدريجيا ، حتى جبى الامير حسين الكردى نائب السلطان قونصوه الغورى فى جده عشرة أمثال العشر ، أى مثل قيمة البضائع تماما • ومن المرجح أن هذه الزيادة فى أعقاب وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ مما أضعف من حجم التجارة الشرقية المارة بطريق البحر الاحمر وأدى بالتالى الى مغالاة السلطات المملوكية فى جدة فى رفع نسبة المكوس لتحصل على اكبر عائد يغطى احتياجاتها مع قلة حجم التجارة الواردة •

ولم تكن المعاملة فى الموانى المملوكية الاخرى خيرا منها فى جـدة ، فازدادت الرسوم الجمركية على التجارة الواردة الى الاسكندرية ودمياط

---

(٦٤) Lane - Poole, S. : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 340.

(٦٥) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٦٢ •

من السلع الاوربية مما جعل الاوربيين يمتنعون بدورهم عن التصدير الى الموانى المملوكية فى مصر والشام وآنذاك [٦٦] •

ومن القيود التى فرضها كذلك الحكام المماليك على التجار الاجانب منعهم من مغادرة فنادقهم لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات خلال صلاة الجمعة• ويرجع أساس هذا الاجراء الى ماحدث سنة ١٣٦٥ م عندما هاجم بطرس الاول لوزنيان ملك قبرص الاسكندرية فى يوم جمعة وأحتل المدينة ونهبها• ومن القيود كذلك أغلاق الفنادق فى المساء على من فيها ، وكان يتـــولى حراستها حراس من قبل السلطات المملوكية [٦٧] • وقد كان لهذه القيـــود فى مجموعها أثرا سيئا على الاجانب الاوروبيين بوجه عام ، مما سيشجعهم الى جانب اعتبارات عديدة أخرى سنشير اليها فيما بعد ـ على التوجه الى كشف الطريق البحرى المباشر بين أوربا والهند فى نهاية القرن الخـــامس عشر الميلادى ويتمكنون من الوصول الى الهند عبر طريق رأس الرجـــاء الصالح فى عام ١٤٩٨ •

---

(٦٦) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٦٠ •

(٦٧) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص٢٨٣ •

الفصـــــــل الثـــــانى

دور البرتغـــاليين فى تحويل التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى

اتجه البرتغاليون منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادى نحو عمليات الكشوف الجغرافية فيما وراء البحار نتيجة للنمو المتصاعد للشعب البرتغالى ذاته ، وظهور تطلعاته القومية ، ورغبته فى السيطرة والثراء • كما أدى احتدام الصراع الدينى بين المسيحيين الكاثوليك والمسلمين فى شبة جزيرة أيبريا فى نهاية العصور الوسطى الى اتجاه البرتغاليين الى مطـــــاردة المسلمين على ساحل افريقيا الغربى ، والى اصرارهم على انتزاع التجارة الشرقية من أيديهم عن طـــريق كشف طريق بحرى مباشـــر الى البحـــار الشرقية • وكان البرتغاليون قد تأثروا بتحريض أهالى جنوه الذين سعوا الى القضاء على ثروة أعدائهم ومنافسيهم البنادقة بعد أن جنوا أرباحـــا طائلة من التجارة الشرقية [1] • وكان الحجم الاكبر من هذه التجارة يمر بمصر وينقل منها الى عالم البحر المتوسط طوال العصور القديمة والوسطى، وكانت البندقية بصفة خاصة ــ كما سبق أن أشرنا ــ تقوم بدور الوسيط بين موانى البحر المتوسط الاسلامية والعالم الاوربى آنذاك •

واستطاع البرتغاليون أن يحققـــوا غايتهم مستندين الى قوتهـــم وجهودهم البحرية من جهة ، والى جهود استطلاعية أخرى اتسمت بالسرية

---

(١) Serjeant, R. B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, p. 2.

وتركزت حول جمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق ، وطرق هذه التجارة، وانواع البضائع الشرقية ، وامكانات القوى التى سيحاربونها من جهة أخـــــــرى [٢] .

وقد استولى الملك البرتغالى « يوحنا الاول Jean 1 » على سبته[٣] فى سنة ١٤١٥ [٤] وأقطعها لولده الامير هنرى الشهير بالملاح والمعروف بحقده وكراهيته المتناهية للاسلام والمسلمين ، والذى سيكرس حياته ويبذل جهوده لاكتشاف طريق بحرى جديد يدور حول افريقيا للوصول الى الهند للسيطرة على تجارة المسلمين [٥] . وبدأت أولى حملات الكشوف البحرية البرتغالية لسواحل غرب افريقيا فى سنه ١٤١٨م . وقد لجـأت البرتغال الى اضفاء الشرعية الكنسية على التوسعات البرتغالية فى أعقاب فتح العثمانيين للقسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ عندما حصلت على براءة البابا نيقولا الخامس فى اليوم الثامن من يناير سنة ١٤٥٤ بأحقية التاج البرتغالى فى امتلاك سبته وغيرها مما يؤكد توفر الروح الصليبية فى توسع البرتغال فضلا عن الدوافع السياسية والاقتصادية الغالبة [٦] . وقد اســتمرت الحملات البحرية البرتغالية تكتشف الساحل الغربى لافريقيا حتى تمكن

---

(٢) Alvarez, F.: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the Years 1520 à 1527, pp. 265 à 270.

(٣) مدينة سبته هى مدينة مغربية تطل على ساحل البحر المتوسط وقد احتلها لبرتغاليون عام ١٤١٥ ، الا أن هذا الاحتلال لم يدم طويلا وذلك بسبب احتلال الاسبان لها بعد ذلك والذى لا يزال حتى الان ، وقد شمل هذا الاحتلال فى نفس الوقت مدينة مليلة القريبة منها .

(٤) Atkinson, W. C. :A History of Spain and Portugal, p. 99.

(٥) احمد مختار العبادى (دكتور) : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ٤٥٥ .

(٦) براهيم شحاته حسن (دكتور) : وقعة وادى المخازن فى تاريخ المغرب (٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م) ، ص٢٩ .

« بارتلميودياز Bartholomew Diaz » من الوصول الى أقصى نقطة فى هذا الساحل واكتشاف الطرف الجنوبى لافريقيا الذى عرفه « برأس العواصف » والذى أطلق عليه ملك البرتغال « يوحنا الثانى Jean II (١٤٨١ — ١٤٩٥) « رأس الرجاء الصالح » تيمنا بالكشف الجديد وذلك فى عام ١٤٨٧م (٧) •

وقد تمكن الرحالة البرتغالى « بيرودى كوفلهام «Pero de Koviham» فى منتصف سنة ١٤٨٧ من الوصول الى مصر عبر البحر المتوسط ، وأبحر منها الى ميناء سواكن عبر البحر الاحمر ، ثم اتجه جنوبا حتى وصل الى عدن ، ووصفها بأنها كانت آنذاك مدينة عظيمة وأن بها تجارا من جميع الاجناس ، وبعد ذلك واصل رحلته الى الهند (٨) • وعند عودته قام بزيارة معظم المناطق الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقى لافريقيا ، كما مر بمدينة زيلع ، ثم اتجه جنوبا حتى وصل الى «سوفالا » (٩) • وقد عاد هذا الرحالة الى مصر حيث تمكن من جمع معلومات عن الحبشة دفعته للتوجه اليها • وكانت رحلته الى الحبشة — التى كانت تتبع من الناحية العقائدية الكنيسة الارثوذكسية اليعقوبية فى مصر — بداية لسلسلة من رحلات المستكشفين والبعثات الاوربية الكاثوليكية التى وفدت اليها أثناء القرن السادس عشر ، والتى كانت تهدف الى استقطابها للكاثوليكية (١٠) •

---

(٧) Kammerer, A.: La Mer Rouge, L'Abyssinie et L' Arabie depuis L'Antiquite, T. II p. 75.

(٨) Playfair, R. L.; A History of Arabia Felix or yemen, Selections from the Records of the Bombay Government, New Series, XLIX, p. 96.

(٩) Coupland, R.: East Africa and Its Invaders, p. 42.

(١٠) Johnston, H.: History of the Colonization of Africa by alien, races p. 32.

لتطويق العالم الاسلامى وانتزاع التجارة الشرقية التى تشكل مصدر قوته آنذاك[١١] • وقد أصبح « بيرودى كوفلهام » مستشارا لملك الحبشة (قسطنطين الثانى) ثم رسوله الى ملك البرتغال « يوحنا التانى » للاتفاق على حملة مشتركة لتحرير القدس ، ولكن البعثة لم تبتعد كثيرا بسبب نزاع نشب بين حراس البعثة ، وبعض الاهالى ، وهكذا فشل هذا المشروع [١٢]• وعلى أية حال فقد مهدت جهود الرحالة « بيرودى كوفلهام » السبيل أمام الرحالة « فاسكودا جاما Vasco da Gama » عندما قام برحلته حول رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٧ ومر بالساحل الشرقى لافريقيا حتى وصل الى موزمبيق حيث وجد قاربا على متنه بعض الزنوج وأحد البحارة ، ظنه البرتغاليون فى بداية الامر من المغاربة • وعندما ما اقتربت السفن البرتغالية من القارب ، هرع الزنوج والقوا بأنفسهم فى البحر وفروا الى الساحل بينما نقل البحار الى سفينة القيادة البرتغالية حيث أحسن « داجاما » استقباله ، واكتشف أن الرجل هندى ، وليس عربيا مغربيا وأنه من أهل « كمباى Cambay » بالهند ويدعى « دافان » ، وقد اتخذه داجاما مستشارا له لانه كان خبيرا بالتوابل ومن سماسرتها • وقد وافق هذا الملاح على مرافقة البرتغاليين الى الهند ، وتعهد بتزويدهم بحمولة من التوابل نظير توصيله الى بلاده [١٣] • كما استجاب شيخ موزمبيق لطلب « داجاما » وزوده بأثنين من المرشدين ، الا أنهما تمكنا

---

(١١) بانيكار ، ك. م. : آسيا والسيطرة الغربية ، تعريب عبد العزيز توفيق جاويد ، ص ٢٩ .

(١٢) Ziade, M. : Foreign Relations of Egypt in theFifteenth Century, Vol. 1., pp. 287, 288.

(١٣) Howe, Sonia: Op. Cit., pp. 193 à 195.

من الفرار عندما تأكدا أن البرتغاليين من المسيحيين مما أدى الى استخدام البرتغاليين العنف مع الاهالى [١٤] . ولهذا لم يغامر «داجاما» بالرســو باسطوله فى منبسة ، عندما شك فى احتمال قيام ملكها بتدمير سفنه واغراقها انتقاما لما فعله ضد أهالى موزمبيق . وعندما وصل البرتغاليون بعد ذلك الى ميناء مالندى ـ الواقعة حاليا فى كينيا ـ لقى داجاما فيها ترحيبا من ملكها، خوفها أو ضعفا [١٥] . فلما عزم على مغادرتها بعد عدة أسابيع ، طلب من صاحبها امداده بملاح يرشده الى الهند ، فاستجاب له الملك وأمده بملاح ماهر قاد أسطوله الى قاليقوط ، فوصلها فى مايو سنة ١٤٩٨ [١٦] . واذا كان ذلك ما أوردته الكتابات البرتغالية حول هذا الموضوع فان أول من أشار اليه من المؤرخين العــرب قطب الدين النهــروالى الذى أشـــار الى أن البرتغاليين « دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبــير الفرنج وقال لهم : لاتقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا فى البحــر ثم عودوا ، فلا تنالكم الامواج . فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم . فكثروا فى بحر الهند ... وصارت الامداد تترادف عليهم من البرتغال . وصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا ونهبا، ويأخذون كل سفينة غصبا ، الى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين » [١٧] . وعلى هــذا النص اعتمد المستشــرق الفرنسى

---

(١٤) Strandes, J. : The Portuguese period in East Africa, pp. 20 - 24.

(١٥) Strong, A. : The History of kilwa, (J. R. A. S.) London, 1895, pp. 397,428

(١٦) جيان . وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية ، ص ٢٠٩ .

(١٧) قطب الدين النهروالى ، محمد بن أحمد الحنفى المكى : « البــرق اليمانى فى الفتح العثمانى » مخطوطة نشرها حمد الجاسر عام ١٩٦٧ ، ص ١٨ — ١٩ .

« جبرييل فران G. Ferrand » . فيما ذهب اليه من أن أحمد بن ماجد العربى المسلم هو الملاح الذى قاد أسطول « فاسكوداجاما » من مالندى الى موطن التوابل فى قاليقوط [١٨] . ومن المرجح أن دور ابن ماجد انحصر فى اسداء النصح وتقديم المشورة للقائد البرتغـالى «فاسكوداجاما» وامداده بالمعلومات التى ساعدت على سلامة سفنه ، وتعليمه الطـريق قولا ووصفا ، وليس عملا وقيادة . أما الملاح الذى قام بمهمة ارشـاد الاسطول البرتغالى الى الهند ، فهو ذلك الملاح الهندى الذى أشارت اليـه المصادر البرتغالية . وبذلك « لا تلقى المسئولية كاملة على ابن ماجد فى وصول البرتغاليين الى الهند . خاصة وأن البرتغاليين آنذاك لم يكشفوا عن أهدافهم الحقيقية ، ولهذا كان من السهل عليهم العثور على من يتعاون معهم ، طالما كانت معاملتهم حسنة ، وتكفلوا باعطاء الاجر المناسب »[١٩] .

وعلى أية حال ، فقد استغرقت رحلة « فاسكوداجاما » ثلاث سنوات (١٤٩٧ — ١٤٩٩) عاد بعدها من الهند الى لشبونه فى شهر سبتمبر سنة ١٤٩٩ . وقام « فاسكوداجاما » أثناء رحلته بمهاجمة احدى السفن التجارية العربية واستولى على مابها من بضائع ، ثم أمر باغراقها بمن تحملهم من الركاب . كما قام أثناء رحلته الثانية الى الهند فى سنة ١٥٠٢ بتكليف أحد قادته بالاقامة الدائمة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الاحمر لمهاجمة السفن الاسلامية ولمنع السفن المختلفة من المتاجرة أثناء ابحارها

---

(١٨) Ferrand, G.: Le pilote Arabe de vasco de Gama, pp. 290 - 307, Art Shihab Al *ā* Din, in ENC. of Islam, Vol. Iv, p. 368.

(١٩) محمد عبد العال أحمد (دكتور) : اضواء جديدة على ملاح فاسكودى جاما ، مجلة معهد الدراسات والبحوث الافريقية بجامعة القاهرة ، العدد الخامس ١٩٧٦ ، ص ١٥٥ — ١٦٧ ، ١٧٨ .

فى مياه المحيط الهندى الا بتصـــريح خاص من قبل البرتغـــاليين [٢٠] .
وقد اشتط « فاسكوداجاما » فى مهمته عندما قام فى شهر يناير سنة ١٥٠٣
بمهاجمة سبع سفن اسلامية واستولى عليها ، بل أنه قام بقتل بعض ركابها
وأسر البعض الاخر وفى ذلك يورد المؤرخ « بامخرمة » فى حولياته (عن
سنة ٩٠٨هـ التى يوافق مطلعها اليوم السابع من يوليو سنة ١٥٠٢ م) .
أن : « فى هذه السنة ظهرت مراكب الفرنج فى البحر بطريق الهند وهرموز
وتلك النواحى ، وأخـــذوا نحو ســـبعة مراكب وقتلوا أهلهـــا وأســـروا
بعضهم » [٢١] . «ثم يشير ابن اياس» فى حولياته عن سنة (٩١٢هـ التى
يوافق مطلعها ٢٤ مايو ١٥٠٦م) . «وفى هذه السنة قويت شوكة الفرنج،
وحصل على المسلمين منهم ضرر عظيم فى ناحية الهند وهرموز ، أهلكهم
الله ».[٢٢] ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل انهم هددوا جده فى سنة
١٥٠٥ [٢٣] ، وتمكن بعض جواسيسهم من التسلل الى مكة نفسها (٢٤).
على هيئة حجاج فى زى عربى وكشف أمرهم ، وكان ملكهم قد أقسم أن
يستولى على مـــكة وأن يقـــوم بنبش قبر الرسول — ﷺ — فى المدينـــة
المنورة [٢٥] . وتعتبر الرحلة التى قام بها « فاسكوداجاما » الى الهنـــد
بداية للمرحلة الاولى فى تاريخ البرتغاليين (بلاد الشرق ، اذ تطـــورت

---

(٢٠) Hunter, F. M. An account of the British settlement at Aden, p. 162.

(٢١) بامخرمه ، أبو محمد بن عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ — ١٥٤٠) : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، مخطوطة السنة الثامنة بعـــد التسعمائة ، لوحة ١١٩٠ .

(٢٢) بامخرمة : نفس المصدر ، لوحة ١١٩٢ .

(٢٣) Stripling, G. W. F. : The Ottoman Turks and the Arabs, p. 28.

(٢٤) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤، ص ١٩١ .

(٢٥) Kammerer, A. : Op. Cit., Tome 2., p. 144.

أغراضهم فى خلال فترة لاتتجاوز عشر سنوات تمتد بين عامى ١٤٩٩ و١٥٠٩ من مجرد الرغبة فى كشف الطريق البحرى الى الهند لتحقيق بعض المكاسب الإقتصادية (٢٦) ، الى الرغبة فى احتكار التجارة الشرقية والسيطرة عليها وعلى مصادرها الاصلية ، بل والى اقامة أول حكومة استعمارية أوربيــة فى بلاد الشرق • ولاشك أن تفوق البرتغاليين الحربى كان عاملا أساسيا فى تطور موقفهم السريع أثناء تلك الفترة بحيث كانوا يمتلكون سفنا حربية مزودة بالمدافع ، وهى أسلحة لم تكن معروفة فى الهند فى ذلك الحين (٢٧)• وقد تركز نشاط البرتغاليين فى تلك الفترة فى تثبيت اقدامهم على سواحل المحيط الهندى ، وفى مهاجمة السفن والمراكز التجارية العربية والاسلامية فى مياه الخليج العربى والبحر الاحمر وبحر العرب والمحيط الهندى بوجه عام (٢٨) وكان استيلاء البرتغاليين على جزيرة سقطرى فى سنة ١٥٠٦م، الواقعة فى مواجهة القرن الافريقى وتشرف على مدخل خليج عدن المؤدى الى البحر الاحمر ، عاملا حاسما فى تحكم البرتغاليين فى الطريق البحرى المباشر بين مصر والهند • وقد أعقب ذلك استيلاء البرتغاليين على ملقا فى سنة ١٥١١ فى أقصى شبه جزيرة الملايو فى الطرف الجنوبى الشرقى

---

(٢٦) عيسى بن لطف الله : « روح الروح فيما حدث فى المائة التاسعة من الفتن والفتوح » ، مخطوطة ص ٩ .

(٢٧) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الاول لليمن ١٥٣٨ — ١٦٣٥ ، ص ٥٠ — ٥١ .

(٢٨) محمد عبد العال احمد (دكتور) : البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه ، نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمنى «بامخرمة» كما سجلها فى مخطوط (قلادة النحر) دراسة وتحقيق ، ص ١٠٠ .

من آسيا ، والتى كانت تعد من أعظم قواعد التجارة العالمية ، حيث تتجمع منتجات منطقة الشرق الاقصى والهند الصينية بصفة خاصة • كذلك أدى استيلاء البرتغاليين على هرمز الى اغلاق الخليج العربى (٢٩) والى سيطرتهم على مصايد اللؤلؤ فى الخليج ، وعلى تجارة الخيول الفارسية والعربية التى كانت ترسل من هرمز الى بلاد الهند •

وبعد أن تمكن البرتغاليين من الوصول الى قاليقوط فى سنة ١٤٩٨م، أخذت التجارة الشرقية التى كانت تصل من المحيط الهندى — الذى كان أشبه بوعاء العسل بما فيه من خيرات — تتحول الى طريق رأس الرجاء الصالح ، بحيث لم تعد مصر المركز الرئيسى الذى تتجمع فيه السلع الشرقية ، فيشتريها البنادقة وغيرهم • ولما أصبح البرتغاليون يتحكمون فى منابع هذه السلع من أرجاء المحيط الهندى بعد حركة الكشوف فلم تعد هناك حاجة الى وساطة مصر أو البندقية ، تلك الوساطة التى أدت الى ارتفاع أثمانها فى الاسواق الاوربية • اذ كان ثمن قنطار الفلفل على سبيل المثال يتراوح بين ٢½ و ٣ بندقيا فى قاليقوط ، ويصبح ثمنه بعد وصوله الى الاسكندرية ٨٠ بندقيا ، على حين صار يباع فى لشبونة البرتغالية بعد الكشف الجغرافى بسعر يتراوح بين ٢٠ و ٤٠ بندقيا ، أى أن أسعار السلع انخفضت بواقع نصف قيمتها على أكثر تقدير • كما أن السفن البرتغالية وفرت على المستهلك الاوربى مشقة الحصول على السلع الشرقية حتى من لشبونة التى أصبحت مركزا لتجميع هذه السلع وتسويقها ، اذ صارت السفن البرتغالية تنقل السلع الشرقية مباشرة الى مناطق الاستهلاك مثل انجلترا

---

(٢٩) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج١ ، ص٦٩٨ — ٦٩٩ •

والاراضى المنخفضة وغيرها من الدول الاوربية [٣٠] .

وهكذا تمكن البرتغاليون من تحويل التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح عقب وصولهم الى الهند فى سنة ١٤٩٨ ، وبذلك حـــرمت مصر وعالم البحر المتوسط من تيارها المتدفق فى مطلع القرن السادس عشر الميـــــلادى .

---

(٣٠) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

الفصـــــل الثـــــالث

أثر تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحـــر المتوسط أثناء القـــرن السادس عشـــر

أدى تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهـــاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين الى احداث تغير واضح المعالم فى الواقع الاقتصادى والسياسى والاستراتيجى الذى عاشته مصر وعالم البحر المتوسط فى مطلع العصور الحديثة ، وخاصة أثنـــاء القرن السادس عشر أو بالاحرى حتى نهاية الفـــترة التى ظهـــرت فيها انعكاسات هذا الحدث التاريخى الهام وردود الفعـــل المختلفـــة ازاءه ، والنتائج التى ترتبت عليه ، واستمرت مع تغير تدريجى ، وتطور بطىء حتى عودة التجارة العالمية الى هذا الطريق التقليدى القديم عبر مصـــر وعالم البحر المتوسط بشكل واضح فى نهاية القرن الثامن عشر .

وسوف نعالج فيما يلى الاثر الذى أحدثه هذا التحول للتجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط فى المجالات الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية حتى يمكننا التعرف على حقيقـــة أبعاده ، أثناء القرن السادس عشر .

(أولا) الاثر الاقتصادى لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر :

مما لا شك فيه أن العامل الاقتصادى يشكل احدى الدعامات الكبرى التى تستند اليها أى دولة فى قيامها وبقائها ، وأنه اذا تطرق الضعف الى هذه الدعامة فان ذلك يعد نذيرا بتداعى الدولة وانهيارها . ودولة سلاطين

المماليك فى مصر والشام والحجاز كانت تتمتع أيام عنفوانها وقوتها باقتصاد متين ، استند الى هذا الحجم الهائل من التجارة العالمية النشطة التى كانت تمر عبر بلادها من جهة ، والى تمتعها بحالة من الامن والاستقرار النسبى من جهة أخرى ، هذا فضلا عن امتلاكها لقوة ضاربة يحترمها الاصـــدقاء ويخافها الاعداء ، ونظام مماليكى كان فى عهد قوته يعترف فيه المملوك بفضل أستاذه ، ويحترم فيه الصغير من هو أكبر منه سنا ودرجة • وهكذا حققت دولة سلاطين المماليك توازنا يدعو الى الاعجاب فى سياستها الداخـلية والخارجية جعلتها موضع احترام سكانها فى الداخل وجيرانها فى الخارج وذلك خلال القرنين الاولين من بداية عهدها وقبل نصف قرن من انهيارها عــــــام ١٥١٧ •

غير أن السلطنة المملوكية تعرضت فى نصف القرن الاخير من حياتها منذ عهد السلطان قايتباى فى سنة (٨٧٢هـ• / ١٤٦٧م•) لكثير من مظاهر التدهور الاقتصادى نتيجة لعوامل متعددة ، وكان تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح بعد وصول البرتغاليين الى الهند فى سنة ١٤٩٨ ، وما ترتب عليه من اضعاف للنشاط التجارى وللعوائد المالية للمماليك من جهة ، وما صاحب ذلك من مجهود حربى لمواجهة الخطر البرتغــــالى فى وقت انهار فيه نظام الاقطاع الحربى الذى استند اليه كيان الدولة منذ بداية عهدها من جهة أخرى ، وجاء ذلك من ناحية الترتيب الزمنى فى نهاية تلك العوامل ، فقد كان هذا العامل الآخير أشبه بالقشة التى قصمت ظهر البعير • ولكى نتعرف على الابعاد الحقيقية لهذا الحدث التاريخى المتمثل فى أثر تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، فأنه ينبغى علينا أن نتعــرف على عوامل التدهور التى ظهرت فى كيان الدولة المملوكية فى نصف القرن

الاخير من حياتها لما لها من أثر كبير على اعطاء هذا الحدث التاريخى حجمه الحقيقى وبعده التأثيرى ، وخاصة بعد أن ارتكز اليه منفردا الكثيرون من الباحثين متأثرين بأنه كان آخر الاحداث البارزة التى كان لها تأثيرا سلبيا فى حياة الدولة المملوكية فى نهاية عهدها ٠

ومن العوامل التى اشتركت مع هذا العامل الاخير فى احداث التدهور الاقتصادى للدولة المملوكية فى نهاية عهدها وخاصة منذ عهد السلطان قايتباى الذى بدأ عام (٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) ظهور عبث المماليك الجلبان [1] مع أهالى البلاد الامنين بشكل ملحوظ ، ونهب أموالهم وممتلكاتهم ، والتمرد بين حين وآخر على السلطان بدعوى عدم الرضا عما يخصصه لهم من نفقة وأموال ومطالبتهم بالمزيد ٠ ولم تسلم فئة من فئات المجتمع من أذى المماليك وفسادهم حتى « أنهم رجموا الامراء من الطباق بالحجارة وكبوا عليهم الماء المتنجس بالاقذار وخطفوا عمائم الفقهاء» ،كما يروى ابن اياس فى حوادث عام (٩٠٤هـ / ١٤٩٨م) [2] ٠ بل أن المماليك الجلبان لم يستطيعوا أن يكفوا أيديهم عن أذى الناس حتى فى أوقات الخطر والشدة٠ وقد روى ابن اياس فى حوادث عام (٩٢١هـ / ١٥١٥م) أنه عندما نودى فى العسكر للتجريدة وللخروج لمواجهة العثمانيين أن المماليك الجلبان « نزلوا من القلعة وأطلقوا فى الناس النار ، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار ، وهجموا عليهم الحارات والبيوت ، ونزلوا الفقهاء من على بغالهم فى وسط الاسواق ، وأخذوهم من تحتهم » [3] ٠ وكان من الطبيعى أن يترك

---

(١) المماليك الجلبان هم المماليك الذين جلبهم السلطان لنفسه عن طريق الشراء من خارج مصر ، وكان السلاطين يقربوهم اليهم على حساب المماليك الاخرين مما سبب الغيرة بينهم وبين غيرهم من المماليك ٠

(٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٤،ص٤٠٠ ٠

(٣) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٤٧٤ ٠

ذلك أثره فى الحالة الاقتصادية اذ لم تلبث أن أغلقت الطواحين قاطبة ، وامتنع الخبز من الاسواق وكذلك الدقيق ، ووقع القحط بين النـــاس ، وضج العوام ، وكثر الدعاء على السلطان ، وعلقت أسواق القماش من المماليك ، واختفى الصنايعية والخياطون ، واضطربت أحوال القـــاهرة ، واختفى جماعة من التجار خوفا من المماليك » [٤] • وتجدر الاشارة الى أن عبث المماليك كان معظمه من المماليك الجلبان ، الذين دأب سلاطين المماليك مع افتقار دولتهم على شرائهم كبارا وقد تجاوزوا سن البلوغ لانهم فى هذه الحالة كانوا أرخص ثمنا من المماليك الصغار الذين ينشأون فى قصورهم وهؤلاء المماليك الكبار كان يصعب تعليمهم آداب الســـلوك وتغيير أسلوبهم الذى اعتادوه فى صغرهم مما جعلهم أداة هدم ومعول تخريب فى الدولة • وتكاد لاتمر سنة واحدة من الخمسين سنة الاخيرة من عمر دولة سلاطين المماليك دون أن يشير ابن اياس الى فتنة أو ثورة أو اضطراب أحدثه المماليك الجلبـــان فى الدولة وترتب عليـــه انهيـــارا فى اقتصادياتها من جهة أو أخرى [٥] •

كذلك لم يلتزم سلاطين المماليك نوعا من الاقتصـــاد فى نفقاتهـــم الخاصة ليخففوا على رعاياهم الاعباء الثقال الملقاه على عواتقهم ، وانما استمر المماليك — سلطانا وأمراء وجندا — يعيشون عيشة البذخ والاسراف فى الوقت الذى يئن الناس من كثرة الالتزامات المفروضة عليهم • فالسلطان قايتباى الذى أعلن سنة (٨٩٤هـ / ١٤٨٨م) أمام القضاة والامراء أن جميع ما فى خزائن الدولة من أمـــوال قد نفذ ، اذ به فى العام التـــالى

---

(٤) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٧٤ — ٤٧٥ •

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك (٨٧٢ — ٩٢٣هـ ١٤٦٨ — ١٥١٧م) فى ضوء كتابات ابن اياس ص ٧٠ •

(٨٩٥هـ /١٤٨٩م) يقيم حفلا لمناسبة ختان ابنه محمد الذى تسلطن بعده وكان فى السابعة من عمره • ويتكلم ابن اياس عن هذا الحفل فيقول مانصه « وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية ، وكان من نوادر المهمات ، فاجتمع سائر مغانى البلد ، ورسم السلطان بأن تزين القاهرة ، فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل الاسواق ••• فكانت تلك الايام مشهودة لم يسمع بمثلها ، ودخل على السلطان من التقادم مالا ينحصر من مال وخيول وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك ، مما يزيد عن خمسين ألف دينار • فكان من جملة ماأهداه المقر الشهابى أحمد بن العينى طست وأبريق ذهب زنته نحو ستمائة مثقال برسم الختان ••• » (٦) • واستمرت مظاهر الاسراف والتبذير حتى عهد السلطان الغورى الذى يقول عنه ابن اياس فى حوادث سنة (٩٢٢هـ — ١٥١٦م) أن خاصكيتةتكاملت فى تلك السنة « نحو ألف ومائتى خاصكى من مشترواته » • (٧) هذا كله فضلا عن المنشآت الضخمة التى ظل السلاطين يقيمونها حتى أواخر عهد دولتهم • ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما عدده ابن اياس فى حوادث سنة (٩٠١هـ — ١٤٩٥م) من منشآت اقامها الاشرف قايتباى أيام دولته : فأقام خلال حكمه من المبانى الفاخرة أربع منشآت فى الحجاز ، ومدرستين بالشام ، ومدرسة بالاسكندرية ، والقلعة التى أنشأها مكان المنار القديم بالاسكندرية ، ومدرسة بغزه ، وجوامع بمصر والقاهرة ، فضلا عن المدارس والسبل والمكاتب والزوايا والاسبلة والقناطر والربوع ، كما أنشأ وجدد بالقلعة عدة منشآت (٨) •

---

(٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٧١ •
(٧) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٥ ، ص٦ •
(٨) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٣ ، ص٣٢٩ •

ومن العوامل التى زادت من سوء الاحوال الاقتصادية فى نهاية عهد السلطنة المملوكية أمور طبيعية لم ترحم البلاد • اذ يروى ابن اياس كيف انتشر وباء الطاعون فى مصر عدة مرات فى السنوات التاليــة (٨٧٣هـ — ١٤٦٨م) — (٨٨٨هـ — ١٤٨٣م) — (٨٩٧هـ — ١٤٩١م) — (٩٠٣هـ — ١٤٩٧م) — (٩٠٩هـ — ١٥٠٣م) — (٩١٢هـ — ١٥٠٦م) — (٩١٩هـ — ١٥١٣م) • ومن هذا يبدو أن الناس ماكادوا يفيئون من موجة من موجات الطاعون حتى يتعرضون لموجة كاسحة جديدة • [٩] • ويذكر ابن اياس عن الطاعون الذى انتشر سنة (٨٩٧هـ — ١٤٩١م) بأنه كان الطاعــون الثالث الذى وقع فى دولة الاشرف قايتباى ، وأنه « فتك فى الناس فتكا ذريعا » حتى لقد بلغ عدد من مات به وأبلغ اسمه فعلا لديوان المواريث نحو من مائتى الف انسان • ويعلل ابن اياس فى حوادث هذا العام ، هذه الطواعين بالفساد الذى عم البلاد ، وأنها جاءت نقمة من الله بعــد أن « كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك فى حــق النــــاس » [١٠] •

ومن العوامل الطبيعية التى أثرت فى الاوضاع الاقتصادية فى نهاية عهد السلطنة المملوكية ظاهرة انخفاض النيل [١١] وتعرض الحاصــلات لبعض الآفات مما كان يعود على الحياة الاقتصادية بأفدح العواقب • وقد أوضح ابن اياس فى حوادث سنة (٨٩١هـ — ١٤٨٦م) أن فيها « تنــاهى سعر البرسيم كل فدان مخضر باثنى عشر دينارا ، وأبيع الدريس كل مائة قتة بأربعمائة درهم ••• وسبب ذلك أن حب البرسيم كان غاليا فى تلك

---

(٩) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، ص ٨٩—٩٠ •
(١٠) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ •
(١١) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، ص ٨٨—٨٩ •

السنة ، وكان النيل خسيسا . والذى طلع من البرسيم أكلت غالبـــة الدودة . وكان سعر الغلال جميعه مرتفعا فى هذه السنة ، حتى غلا سعر الرواية الماء من عدم العلف لجمال السقايين » .[١٢] .

وفى الوقت الذى تعرض فيه الفلاح فى مصر لهذه الازمات الاقتصادية التى جاءت لفعل الطبيعة ، مابين وباء ونقص فى ماء النيل ، وآفات تلتهم المحاصيل .. اذ به لا يسلم من خطر العربان الذين دأبوا على افســاد البلاد والاعتداء على الفلاحين ونهب مواشيهم ومحاصيلهم مما جعل الريف يتعرض لازمات تخريبية زادت الاحوال الاقتصادية فى البلاد سواء على سوء . وقد أغاض ابن اياس فى وصف عبث العربان بأرجاء مصر وتعديهم على العباد وذلك فى ذكره لاحداث السنوات التالية (٨٧٣هـ — ١٤٦٨م) — (٨٧٦هـ — ١٤٧١م) — (٨٩١هـ — ١٤٨٦م) — (٩٠٤هـ — ١٤٩٨م) — (٩١٨هـ — ١٥١٢م) — (٩٢٠هـ — ١٥١٤م) — (٩٢٢هـ — ١٥١٦م) [١٣] ولم تقف سلطنة المماليك مكتوفة الايدى أمام عدوان العربان ، وانما خرجت الجيوش الى الصعيد والبحيرة والشرقية والجيزة للضرب على أيديهم. ويؤكد ابن اياس كيف تزايد فساد العربان فى سنة (٩١٨هـ — ١٥١٢م) حتى « تحالفت سبع طوائف من العربان (بالبحيرة) أن يكونوا كــلمة واحدة على العصيان ..وقد آل أمر تلك الجهات الى الخــراب » [١٤] . كذلك يروى ابن اياس أن خطر العربان اشتد فى تلك السنة نفســها فى الصعيد واستمر حتى عام (٩٢٢هـ — ١٥١٦م) الذى نهب فيه بنوا عطية

---

(١٢) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٢٤ .
(١٣) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٣ ، ٤ ، ٥ .
(١٤) ابن يلس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٢٥٦ .

والنعايم « ضياع الشرقية ، وأخذوا منها نحوا من أربعمائة رأس من الغنم ودخلوا وادى الغباسة » (١٥) .

هناك كذلك عوامل خارجية أثرت فى اقتصاديات الدولة المملوكيـة فى نهاية عهدها ، وهى تتمثل فى طمع الاعداء فى أراضى الدولة ومحاولتهم غزوها بعد أن اتضح لهم أنها فى ذلك الدور الاخير من عمرها أضعف من أن تستطيع الدفاع عن كيانها . ويشير ابن اياس فى حوادث سنة (٨٧٢هـ — ١٤٦٧م) الى ما كان بين سلطنة المماليك وشاه سوار من أمراء التركمان على الحدود الشمالية للدولة — من حروب (١٦) . كما يشير فى حـوادث سنة (٨٨٨هـ — ١٤٨٣م) الى أن على بن دولات بن دلغادر هاجم ملطية فى جميع كبير من العساكر « فانزعج السـلطان لهذا الخبر » (١٧) . أمـا هجمات العثمانيين فيشير اليها ابن اياس فى حوادث سـنة (٨٩٠هـ — ١٤٨٥م) و (٨٩١هـ — ١٤٨٦م) و (٨٩٣هـ — ١٤٨٧م) (١٨) وغيرها . هذا بالاضافة الى بعض الهجمات التى تعرضت لها سلطنة المماليك فى هذا الدور ، وجاءت من ناحية البحر المتوسط ، اذ دأب الفرنج وقراصنتهم على مهاجمة شواطىء الدولة وموانيها وقطع الطريق على سفنها التجارية فى عرض البحر . من ذلك ما يشير اليه ابن اياس فى سنة (٨٧٨هـ — ١٤٧٣م) من أنه « جاءت الاخبار من الاسكندرية بأن الفرنج قد تعبثـوا ببعض سواحلها وأسروا من المسلمين تسعة أنفار ، وفعلوا مثل ذلك بثغـر

---

(١٥) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٧٩ .
(١٦) ابن اياس : : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٤٥٠ .
(١٧) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٣ ، ص١٩٩ .
(١٨) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٣ ، ص٢١٤،٢٢٢،٢٣٧ .

دمياط »[١٩] • وذكر ابن اياس أحداثا مشابهة تشير الى عدوان الفرنج في البحر المتوسط على موانى دولة المماليك وسفنها فى حوادث سنة (٩١٣هـ — ١٥٠٧م) و (٩١٤هـ — ١٥٠٨م) و (٩١٥هـ — ١٥٠٩م)[٢٠] •

ومن الواضح أن خطورة هذه الهجمات المعادية على أطراف السلطنة المملوكية وسواحلها فى نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين لاتقف من الناحية الاقتصادية عند حد ما كانت تحدثه من خراب وتدمير ، وانما كانت تتطلب للحد من خطرها ومقاومتها نفقات باهظة تلقى على خزانة الدولة مزيدا من الاعباء ، فى وقت اشتد طمع الجند وازدادت شراهتهم للمال ، وصاروا لا يتحركون ولا يخرجون فى تجريدة الا بعد أن يتقاضوا الثمن اضعافا مضاعفة • وكانت هذه الحروب الدفاعية هى فى نفس الوقت حروبا استنزافية تلقى أعباء جديدة ثقيلة على خزانة الدولة وبالتالى فانها زادت الاوضاع الاقتصادية سوءا فوق سوء •

واذ كانت كل هذه العوامل قد أثرت فى اضعاف اقتصاديات السلطنة المملوكية فى نهاية عهدها ، فأنه لا يخفى علينا أن العامل الاساسى فى تدهور الحياة الاقتصادية فى أواخر عصر سلطنة المماليك ، انما يكمن فى كساد تجارتها • ذلك أنه من المعروف أن دولة المماليك بنت قوتها واستمدت ثروتها من قيامها بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب ، وفى عصر انسدت فيه معظم طرق التجارة الداخلية بسبب ظهور التتار على مسرح الشرق الاوسط ، بحيث لم يبق خارج سيطرتهم الا طريق البحر الاحمر — عبر اراضى دولة المماليك الى البحر المتوسط • ولكن اكتشاف البرتغاليين لطريق

---

(١٩) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٣ ص ٨٩ •

(٢٠) بن اياس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص١١١، ١٣٠، ١٥٠ •

رأس الرجاء الصالح ووصولهم الى الهند فى سنة ١٤٩٨ حرم سلطنة المماليك من المورد الاول لثروتها وقتها ، الى جانب ما كانت تعانى منه آنذاك من تدهور اقتصادى على النحو الذى أشرنا اليه مما أنزل ضربة قاصمة بوضعها الاقتصادى وكان هذا الحدث التاريخى الخطير أشبه بالقشة التى قصمت ظهر البعير •

وقد حاول السلطان الغورى مواجهة الخطر البرتغالى وأرسل حملته الاولى التى هزمت فى موقعة ديو عام ١٥٠٩ • وكان عليه أن يواصل جهوده بعد أن علم ــ كما يروى ابن اياس فى حوادث عام (٩١٩هـ ــ ١٥١٣م) أن الافرنج » قد زاد تشويشهم على التجار فى البحر الملح (البحر الاحمر) وصاروا يخطفون البضائع من المراكب ، وقد ملكوا كمران وهى من بعض جهات الهند (والصحيح أنها جزيرة قمران المواجهة للساحل اليمنى المطل على البحر الاحمر شمالى الحديدة) ، وقد تكامل من مراكب الفرنج بالبحر نحو عشرين مركبا ، وكثرت الاشاعات بسفر السلطان الى السويس«[٢١]• لكى يتفقد بنفسه بناء أسطوله فى البحر الاحمر لمواجهة البرتغاليين الذين حاصروا آنذاك « مدينة سواكن وأن الشريف بركات امير مكة خرج الى جده •• خوفا على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه » [٢٢] •

ويصور ابن اياس ما أصاب اقتصاد الدولة المملوكية آنذاك من خراب نتيجة لكساد تجارتها فى عبارة ذكرها فى حوادث سنة (٩٢٠هـ ــ ١٥١٤م) فيقول : « وكان فى تلك الايام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص فى غاية الانشحات والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه

---

(٢١) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٣٥٩ .
(٢٢) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٣٣١ .

القطائع (السفن) فى السنة الخالية . وبندر جده خراب بسبب تعبث الفرنج علي التجار فى بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جده نحوا من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط » (٢٣) .

وأمام هذا التدهور الاقتصادى الذى منيت به الدولة المملوكية طوال الخمسين سنة الاخيرة من عمرها نتيجة للعوامل التى أشرنا اليها والتى انتهت بتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح وانحسارها عن مصر وعالم البحر المتوسط منذ وصول البرتغاليين الى الهند عام ١٤٩٨ ، فقد حاول سلاطين المماليك فى تلك الفترة أن يعالجوا ذلك التدهور . وقد لجأوا الى أساليب عديدة لتعويض خزانة الدولة عما فقدته ، ولتمكينهم من النهوض بالاعباء الملقاة على عاتق حكومتهم ، فضلا عن اشباع المطالب الخاصة بالسلاطين أنفسهم . واذا كانت هذه الاساليب قد نجحت فى توفير بعض الاموال المطلوبة للسلاطين ، الا أنها من الناحية الاقتصادية زادت الطين بلة ، وأسرعت بالخراب الذى حل بالدولة وجمرافقها مما عجل بنهايتها (٢٤) .

من ذلك ما لجأ اليه سلاطين المماليك من تطبيق لسياسة الاحتكار التى توسعوا فيها منذ عهد السلطان برسباى الذى أصدر مرسوما فى عام ١٤٣٨ يحرم به شراء التوابل من غير مخازن السلطان . وقامت هذه السياسة على أساس احتكار السلاطين أصنافا معينة من البضائع لايجوز لاى فرد آخر أن يتاجر فيها ، مما ضمن للسلاطين ايرادا ضخما وخاصة من وراء بعض حاصلات الشرق التى احتكر سلاطين المماليك بيعها للتجار الاوربيين .

---

(٢٣) ابن اياس : نفس المصدر ، ٣٥٩ .

(٢٤) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك ، ص٧٨ .

وأما المتجر السلطانى فالمقصود به أن السلطان كان يستغل أمـــواله بتشغيلها فى التجارة طلبا للكسب ، وبذلك ينافس أرباب الاعمال والتجار فى أرزاقهم • ويروى ابن اياس عن السلطان الغورى فى حوادث سنة (٩١٩هـ ـــ ١٥١٣م) أنه كان « يشترى القمح ويرسله الى الشام فانه كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل وصل فيها كل أردب قمح الى سبعة أشرفية ، فــكان يشترى القمح من مصر ويرسله الى البلاد الشامية ، فانشحطت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك ، وكادت أن تكون غلوة مع وجود القمـــح الجديد » [٢٥] وهكذا استغل السلطان الغورى الفارق فى سعر القمح بين مصر والشام ليشترى كميات كبيرة من القمح لحسابه الخاص ويرسلها الى الشام ليحصل على فرق الثمن ، غير مبال بما يعانيه شعبه فى مصــر والشام جميعا من جراء هذا الاستغلال •

كما تحايل سلاطين المماليك من أجل الحصول على المال عن طـريق مصادرة أموال الناس وأملاكهم • فكان يكفى أن تظهر على أحد رجال الدولة دلائل النعمة حتى يــكون هدفا سهلا للسلطان يقرر عليه المبالغ الضخمة ليدفعها ، والا فبئس المصير • وكانت أعمال المصادرات تشتد عسـفا كلما امتد الوقت بدولة المماليك وازداد عسرها المالى ، حتى اذا ما جاء عصر الغورى ـــ الذى تحولت فى عهده التجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح ـــ كانت سياسة المصادرات قد بلغت أشدها • ويروى ابن اياس فى حوادث سنة (٩٠٧هـ ـــ ١٥٠١م) أن المماليك عندما طلبوا النفقة من السلطان الغورى « ظل يصبرهم نحوا من أربعة أشـــهر حتى جمعت الأموال من المصادرات » [٢٦] • ثم يقول ابن اياس فى حوادث سنة ٩١٥هـ

---

(٢٥) ابن اياس : المصدر السابق ٤ ، ص٣٠٢ •
(٢٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٩ •

أنه « صودر فى هذه السنة جماعة كثيرة من أعيان الناس » [٢٧] . ولم تقتصر هذه المصادرات على الاموال السائلة والعقارات وانما امتدت الى غيرها ، حسب حاجة السلطان . وعندما اشتدت حاجة السلطان الى الاخشاب لبناء السفن فى السويس لمنازلة البرتغاليين فى سنة (٩١٩هـ — ١٥١٣م) ، فان رجاله « صاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصبا باليد ، ويرسلونه الى السويس لاجل عمارة المراكب هناك » [٢٨] .

وثمة نوع آخر من المصادرات لجأ اليه سلاطين المماليك فى ذلك الدور لتدبير المال اللازم لهم ، وتمثل ذلك فى قطع ارزاق الناس — وخاصة الفقهاء والمتعممين وحرمانهم من مرتباتهم العينية أو انقاصها ، حتى انتهى الامر بأن امتدت أيدى السلاطين الى الاوقاف الشرعية لحرمان مستحقيها من نصيبهم . وقد اعترض على ذلك التصرف آنذاك قاضى قضاة الحنفية ، على أن تلك المعارضة لم تحل بين سلاطين المماليك وبين تنفيذ أطماعهم فى الاوقاف فيروى ابن اياس فى حوادث سنة (٩١٤هـ — ١٥٠٨م) كيف أن السلطان الغورى « تعرض للرزق الاحباسية والاوقاف .. فحصل للناس الضرر الشامل ولاسيما أولاد الناس .. وكانت حادثة مهولة لم يسمع بمثلها » . ثم يضيف ابن اياس — فى حسرة وألم قائلا « وأنا من جملة من وقع له ذلك » [٢٩] أى أنه كان من جملة من صودرت اقطاعاتهم . ومازال ابن اياس يقف للسلطان الغورى ليشكو له حاله ، حتى رق له وأمر باعادة اقطاعه اليه فى العام التالى (سنة ٩١٥هـ — ١٥٠٩ م) [٣٠] .

---

(٢٧) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٥٢ .
(٢٨) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٤ ، ٣٠٧ .
(٢٩) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص١٥٠
(٣٠) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ١٧٣

وثمة وسيلة أخرى لجأ اليها سلاطين المماليك للحصول على المال وهى التلاعب بالعملة والتى كان من شأنها حدوث مزيد من التدهور الاقتصادى للسلطنة • ويذكر ابن اياس فى حوادث سنة (٨٧٩هـ — ١٤٧٤م) أن السلطان قايتباى ضرب فلوسا جددا وأراد أن يجعل سعرها أغلى من الفلوس العتق ليجنى السلطان الفرق بين السعرين • وكانت الفلوس تقيم بالوزن لا بالعد، فجعل السلطان كل رطل من الفلوس الجدد بستوثلاثين ، فى حين كان كل رطل من الفلوس العتق بأربعة وعشرين « فخسر الناس فى هذه الحركة الثلث من أموالها » [٣١] • ولاشك فى أن التلاعب بالعملة على هذا النحو من شأنه أن يخلق حالة من عدم الاستقرار بالسوق ، الامر الذي يزيد من ارتباك الأوضاع الاقتصادية بالدولة • كما فرض السلاطين المماليك مكوسا وضرائب لاشباع رغبتهم فى الحصول على الاموال ، فالسلطان قايتباى عندما احتاج الى أموال لا خراج تجريدة ضد العثمانيين فى سنة (٨٩٢هـ — ١٤٨٦م) أمر المحتسب بجمع اعيان التجار وفرض عليهم أربعين ألف دينار قائلا لهم « ساعدونى بشىء من المال على خروج التجريدة » [٣٢] • ولكن التجار ضجوا من ذلك ، ومازالت المفاوضات جارية بين الطرفين حتى قبل التجار أن يدفعوا اثنى عشر ألف دينار • وبالاضافة الى الضرائب المباشرة التى كان يفرضها السلطان على التجار على شكل اتاوات ، لجأ سلاطين المماليك الى فرض بضائع معينة على التجار ، يشترونها من السلطان بالاثمان التى يحددها هو ، ويخسرون فيها أموالا طائلة ، مما أدى الى زعزعة الحالة الاقتصادية فى الاسواق • ويذكر ابن اياس فى حوادث سنة (٩١٧هـ — ١٥١١م) ان السلطان الغورى « أرمى على التجار قاطبة

---

(٣١) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٠٦ •
(٣٢) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٢٤٢ •

شاشات وأرزا وأثوابا صوفا ، وأرمى على السوقة زيتا وعسلا وزبيبا وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث ، وصاروا يستحثونهم فى سرعة الثمن لاجل النفقة ، فغلقت الاسواق بسبب ذلك وأقامت مغلوقة أيـاما » (٣٣) •

ولم يكن أهل الريف — من المقطعين وغيرهم بمنجاة من ظلم السلاطين عندما زادت الازمة الاقتصادية ، وانما امتدت يد العسف اليهم ، ففى الوقت الذى كان رجال السلطان يضيقون على التجار فى العاصمة لسلب أموالهم ، كان الكشاف فى الاقاليم ينفذون تعاليم السلطان بجمع الاموال من المقطعين كما لجأ السلطان الى جمع خراج الآرض من المزارعين قبل استحقاقه وقبل جمع المحصول الجديد ، بل حتى قبل موسم فيضان النيل ، مما عرضهم لكثير من المظالم • ومن ذلك ما أورده ابن اياس فى حوادث سنة (٩١٨هـ — ١٥١٢م) من أن السلطان الغورى رسم «لكاشف الشرقية وكاشف الغربية بأن ينزلوا على البلاد ويستخرجوا من الفلاحين الحمايات والشياخة وقدوم الكشاف عن سنة ثمان عشرة وتسعمائة الخراجية قبل أن تدخل وقبل أن تنزل النقطة وينادى على النيل ، فحصل للمقطعين غاية الضرر ، وصارت الكشاف تنزل على البلاد وتكبس على الفلاحين ، ويستخرجون منهم الاموال بالضرب ، والذى يهرب يقبضون على نسائهم وعلى أولادهم ، فخرب غالب البلاد ، ورحلت عنها الفلاحون » (٣٤) • وتوضح الفقرة الاخيرة من عبارة ابن اياس مدى التدهور الاقتصادى الذى حل بريف مصر آنذاك لحرص المماليك على جمع الاموال بكافة الطرق بعد أن فقدوا عوائد التجارة

(٣٣) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٤٢ •
(٣٤) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٢٦٢ •

عقب تحويلها الى طريق رأس الرجاء الصالح منذ نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر الميلاديين .

ولم يكن صعيد مصر أحسن حالا من الوجه البحرى اذ كان رجال السلطان الغورى يغتصبون الكثير من الخيل ونحوها فى أوقات الحاجة ، فكانوا ينزلون على كل بلد ويفرضون عليه فرسين قيمتهما مائة دينار ، فاذا كانت البلدة كبيرة فرضوا عليها أربعة . ويروى ابن اياس فى حوادث (سنة ٩٢٢هـ — ١٥١٦م) أن الفلاحين ضجوا من ذلك « واخلوا من البلاد، وتركوا زروعهم فى الارض ورحلوا ، وخرب بعض البلاد فى هذه الحركة .. » [٣٥] وهكذا أدت هذه السياسة التى استخدمها الغورى الى خراب الزرع والضرع .

وزاد من ارتباك الاوضاع الاقتصادية فى عهد السلطان الغورى ما عرف باسم المشاهرة والمجامعة ، وهى ضريبة تجمع من السوقة وتدفع للمحتسب كل شهر ليوردها للخزائن السلطانية . وقد بلغ من قسوة هذه الضريبة أن زادت شهريا على الالفى دينار . ويقول ابن اياس فى حوادث (سنة ٩٢٢هـ — ١٥١٦م) أن هذه الضريبة كانت « من اكبر اسباب الفساد فى حق المسلمين » [٣٦] . نظرا لان الباعة اضطروا الى تعويض قيمة هذه الضريبة عن طريق رفع أثمان البضائع فأشتد الغلاء وعز وجود أصناف كثيرة من البضائع حتى اضطر السلطان الى الغائها فى السنة المذكورة .

وفى الوقت الذى كان التجار داخل البلاد يتعرضون لهذه المظالم التى يقع جزء منها بدوره على المستهلك نتيجة للضائقة المالية التى اجتاحت البلاد،

---

(٣٥) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٥ ، ص٣١—٣٢ .
(٣٦) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٥ ، ص٣٢ .

فقد تعرض التجار الإجانب الوافدون على موانى الدولة في مصر والحجاز وغيرها لنفس السياسة التعسفية التى طبقها سلاطين المماليك فى تلك الفترة الاخيرة من حياة الدولة المملوكية الامر الذى جعل التجار ينصرفون عن المتاجره مع الدولة فى الوقت الذى ظهرت معالم الطريق الجديد حول أفريقيا الى الهند • وهكذا ذبلت الاسكندرية ودمياط وجدة وغيرها من ثغور الدولة وأقفرت أسواقها بعد أن انصرف عنها التجار تجنبا لدفع المكوس الباهظة التى فرضها سلاطين المماليك • ويقول ابن اياس عن مدينة الاسكندرية فى حوادث (٩٢٠هـ — ١٥١٤م) عندما زارها السلطان الغورى أنها كانت « فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال • فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها الى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز فلم يوجد بها ، ولا الاكل ووجد بعض الدكاكين مفتحة والبقية لم تفتح •• »[٣٧] •

وما يقال عن الاسكندرية ينطبق على غيرها من ثغور الدولة • اذ يقول ابن اياس فى حوادث سنة (٩٢٢هـ — ١٥١٦م) مانصه « وكان حسين نائب جده يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جده وآل أمره الى الخراب ، وكذلك الاسكندرية ودمياط • فامتنعت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الاصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج »[٣٨] •

وواضح من كل ما تقدم أن تدهور الاحوال الاقتصادية فى أواخر

---

(٣٧) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٢٤ •

(٣٨) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٥ ، ص٨٣ •

عصر دولة المماليك لم يكن نتيجة عامل واحد أو سبب بعينه ، وانما جاء وليد أسباب وعوامل عدة تضافرت لتهز قواعد تلك الدولة هزا عنيفـــا ، حتى فقدت أسباب رخائها وثروتها [٣٩] وكان تحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط عقب وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ من أبرز عوامل التدهور الاقتصادى وفى نهايتها من ناحية التوقيت الزمنى ، مما جعل هذا الحدث التاريخى الهام أشبه بالقشة التى قصمت ظهر البعير كما سبق أن أشرت • ولايمكن فهم أبعاد هذا الحدث الهام دون التعرف على العوامل الاخرى التى عرضناها والتى أدت الى تدهور الاوضاع الاقتصادية فى الدولة المملوكية ، حيث تضافرت جميعها فى انهيار الدولة اقتصاديا ، وبالتالى هزيمتها استراتيجيا وسياسيا أمام الدولة العثمانية فى سنة (٩٢٣هـ — ١٥١٧م) وهو ما سوف نعالجه فى الصفحات التالية مع اظهار انعكاسات هذا الحدث التاريخى على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر الميلادى •

(ثانيا) الاثر السياسى والدبلوماسى لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر :

شهدت سلطنة المماليك فى نهاية عهدها منذ أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين الكثير من الاضطرابات السياسية الداخلية التى جاءت فى نفس الوقت الذى تمكن فيه البرتغاليون من الدوران حول افريقيا والوصول الى الهند فى سنة ١٤٩٨ ؛ وبداية سيطرتهم على

---

(٣٩) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطـــــين المماليـــك ص ٨٨ •

التجارة الشرقية ، وبالتالى حرمان مصر وعالم البحر المتوسط من أهـم الموارد المالية فى ذلك الحين • وقد أدى هذا التحول الذى أثر فى اقتصاديات الدولة المملوكية بوجه خاص الى التأثير بالتالى على الحياة السياسية فيها والتى اتسمت بالتنافس والصراع لاعتبارات متعددة ، زاد تفاقمها عندما ضاقت الموارد المالية وتدهورت اقتصاديات البلاد نتيجة لتحول التجارة العالمية عنها الى طريق رأس الرجاء الصالح •

وكدليل على الاضطراب الذى ساد الحياة السياسية فى أواخر عهد السلطنه المملوكية ما أورده الدكتور محمد محمد أمين فى دراسته لوثيقة تفويض من عصر العادل طومان باى ، صدرت فى (١٢ رجب ٩٠٦هـ — أول فبراير ١٥٠١م) من الاشرف جان بلاط ، ويستدل منها على أن طومان باى العادل رفع اثنين من كبار الامراء الى عرش سلطنة المماليك قبل أن يلى هو نفسه العرش • وأن هذه الوثيقة تمثل فترة اضطرب وقلق شديدين فى أواخـر عصر سلطنة المماليك • والوثيقة رغم صغر حجمها فانها تلقى الضوء على العلاقات التى سادت بين كبار الامراء المتنافسين على العرش ، وهى تدور بين أربعة أشخاص تولى ثلاثة منهم عرش سلطنة المماليك ، وتمثل نـوعا من تقسيم الغنائم بين المشتركين فى الصراع بعد أن تم توزيع المناصب الكبرى عليهم ، وذلك فى الفترة التى أعقبت وفاة السلطان قايتباى ، وحتى تولية السلطان الاشرف قونصوه الغورى • وقد ولى الحكم فى هذه الفترة القصيرة ، والتى لم تتجاوز الخمس سنوات خمسة سلاطين تولى أحدهم وهو محمد بن قايتباى السلطنة مرتين ، وانتهى الامر بقتله على يد الامراء المماليك ، كما تولى أحدهم وهو قونصوه عرش السلطنة مدة ثلاثة أيام فقط ، ثم خلعه الامراء وهذه الفترة تمتـد بين عـامى (٩٠١هـ — ١٤٩٦م) و (٩٠٦هـ — ١٥٠١م) وكانت هذه الفترة هى بداية النهاية بالنسبة لسلطنة

المماليك ، وبخاصة أن هذه الاضطرابات الداخلية جاءت فى نفس الوقت الذى حرمت فيه مصر من التجارة العالمية ، وبالتالى حرمت من أهم مواردها المالية حينذاك [٤٠] .

وتجدر الاشارة كذلك الى ظاهرة الانقسام فى صفوف المماليك التى بدت عند قيام السلطان قانصوه الغورى بمواجهة زحف السلطان سليم الاول العثمانى فى عام (٩٢٢هـ — ١٥١٦م) على بلاد الشام ، [٤١] وكان ذلك انعكاسا للاحوال الاقتصادية السيئة التى كان يعانى منها المماليك فى نهاية عهد سلطنتهم . فالسلطان الغورى كان يتخوف من نائبه على الشام سيباى ويظن أنه يسعى الى أن يحل محله ، خاصة وأن نواب الشام كثيرا ما كانوا يثورون ضد سلاطينهم ، وأحيانا يتولون السلطنة من دونهم . كما كان المماليك الذين صاحبوا الغورى الى الشام فى نزاع فيما بينهم . فمماليك الجلبان بلغ عددهم فى عهد الغورى ثلاثة عشر ألفا ، وأصبحوا يعادون مماليك السلاطين قبله ، الذين عرفوا بالمماليك السلطانية أو القرانص أو القرانصة . وكان أساس النزاع بين الفريقين تقريب الغورى لمماليكه الجلبان على حساب المماليك الاخرين ، بل أنه كان يتذبذب بينهما أحيانا مما يثير الغيرة والحقد بينهم ، فى وقت كانت تعانى فمه البلاد من التدهور الاقتصادى ووجود قحط آنذاك [٤٢] . وأثناء المعركة التى دارت

---

(٤٠) محمد محمد أمين (دكتور) : تفويض من عصر العادل طومان باى «صانع انسلاطين» مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد السابع والعشرون ١٩٨١ ص ٥٦ — ٦١ .

(٤١) Holt, P.M. : Egypt and the Fertile Crescent 1516 - 1922, A political History p. 38.

(٤٢) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، ص١٢٢ .

بين الغورى وسليم الاول فى مرج دابق يوم الاحد (١٥رجب ٩٢٢هـ — ٢٤ اغسطس ١٥١٦ سرت اشاعة بأن الغورى يريد أن يتخلص من القرانصة ، حتى أنه طلب من مماليكه من الجلبان ألا يقاتلوا ، مما جعل القرانصة الذين كانوا فى المقدمة يتوقفون عن القتال ، الامر الذى ترتب عليه الهزيمة الكاملة ، وفرار المماليك بجميع فئاتهم • وكان خاير بك أول من هرب من الامراء ، وتبعه جان بردى [٤٣] ، ومن المرجح أنهما كانا متفقين من الباطن مع السلطان سليم الاول ، حيث كان كلاهما يرى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغورى • وقد حاول الغورى أن يوقف فرار المماليك — سيما من الجلبان — حيث أصبح فى نفر قليل ، وكان ينادى بصوته : « هذا وقت المرؤة هذا وقت النجدة » ، الا أن المماليك استمروا يفرون [٤٤] ، مما ترتب عليه هزيمة الغورى ومقتله فى تلك المعركة • وهذا يوضح مدى التمزق الذى أصاب وحدة الصف المملوكى الذى تواكب مع ظاهرة التدهور الاقتصادى الناتج عن تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح عن مصر وعالم البحر المتوسط آنذاك •

— الاثر الدبلوماسى :

واذا انتقلنا الى النشاط الدبلوماسى الذى ظهر فى مصر وعالم البحر المتوسط نتيجة لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر فاننا سنجد أن البنادقة قد أحسوا بمدى خطورة تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدى البرتغاليين منذ وصولهم الى الهند فى سنة ١٤٩٨،

---

(٤٣) Holt, P. M. : Op Cit., pp. 38, 39.

(٤٤) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، ص١٢٥—١٢٧ •

والذى أدى الى فقدانهم لمصدر ثروتهم الناتج عن اشتغالهم بالتجارة العالمية آنذاك • لهذا فان البنادقة أخذوا يراقبون مشروعات البرتغاليين وتحركات سفنهم ، ويحاولون من جانبهم اقناع سفراء ملوك الهنـد فى لشبونة بعدم مقدرة البرتغاليين على نقل السلع الشرقية بدون مساعدة مالية من البندقية • وكانت هضبة الدكن فى شبة جزيرة الهند مكونة من مملكتين هما مملكة « باهمانى Bahmani » التى أسسها « باهمان شاه » عام ١٣٤٧ ، ومملكة « فيجايانجر Vijayandgar » فى جنوبها ، وفى نهايـة القرن الخامس عشر انقسمت مملكة « باهمانى » وحدها الى خمسة أقسام، وهى المعروفة بملوك الطوائف وهم : بنو عماد شاه ، وبنو نظام شـاه ، وبنو بريد شاه ، وبنو عادل شاه ، وبنو قطب شاه [٤٥] • وقد أصبح لهؤلاء الملوك سفراء لدى ملك البرتغال فى لشبونة بعد تحول التجارة العالميـة الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى •

وقد حرص البنادقة على تكوين تحالف مع المماليك لمواجهة النشاط التجارى البرتغالى الذى سيطر على طريق رأس الرجاء الصالح وحول التجارة العالمية اليه ولهذا جاءت سفارات البندقية الدبلوماسية المتكررة الى بلاط السلطان المملوكى قونصوه الغورى ، وأشهرها سفارة «باندتو سانوتو «Banedetto Sanuto» الى الغورى فى سنة ١٥٠٣ م ، وأشار هذا السفير على السلطان الغورى أن يبعث برسله الى أمراء الهند لحملهم على قطع علاقاتهم بالبرتغاليين ، وقفل موانيهم فى وجه السفن البرتغالية • كذلك طلب السفير من الغورى أن يعمل على تخفيض الاثمان الباهظة التى

---

(٤٥) Lane - Poole, S. : Medieval India Under Mohammedan Rule A. D. 712. 1764., pp. 163, 180

تباع بها التوابل فى الاسكندرية حتى يستطيع البنادقة منافسة خصومهم فى الاسواق الاوربية (٤٦) .

غير أن السلطان الغورى رأى أن يبعث برسالة الى بعض الدول الاوربية ، لتعمل هذه الدول على وقف حملات البرتغال على الهند ، وهدد باتخاذ اجراءات عنيفة ضد المسيحيين فى بلاده ، ولاسيما بالقدس . بل أنه هدد كذلك بقفل الاماكن المقدسة ، وقام بحمل هذه الرسالة راهب أسبانى فرنسسكانى فى بيت المقدس اسمه الاخ « مورو Mouro » ، وكلفه الغورى بالمرور فى طريقه بالبندقية ، فقصد هذا الراهب الى روما حيث التقى بالبابا يوليوس الثانى فى ربيع عام ١٥٠٤ وأحسن البابا لقاءه ووعده بالكتابه الى ملك البرتغال لوقف ارسال الحملات الحربية الى الهند وقد أتم هذا الراهب جولته فى بلاط كل من أسبانيا والبرتغال دون أن تحقق مهمته الدبلوماسية أى جدوى . وعندما زاد احساس البندقية بخطورة الموقف ، أرسلت سفارة دبلوماسية أخرى الى الغورى فى سنة ١٥٠٤ ، وتركزت مهمتها حول تقديم عروض أحسن وأقوى للسلطان نظرا لا طراد عجز البنادقة عن مقاومة البرتغاليين الذين غمروا أسواق أوربا بالمنتجات الشرقية ، لدرجة أن قام حزب كبير فى البندقية يطالب الحكومة بالشراء من لشبونة وليس من الاسكندرية . ولذا اقترحت من جديد سفارة عام ١٥٠٤ ، أن يغرق السلطان الغورى الاسواق بالتوابل حتى يستطيع منافسة البرتغال ، وأن يستخدم نفوذه لدى أمراء الهند لقطع صلاتهم بالبرتغاليين . ثم انها اقترحت كذلك شق قناة فى برزخ السويس ، ونظرا لانها أهملت موالاة المشروع ، فقد ترك دون تنفيذ (٤٧) .

---

(٤٦) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٣٧٨ .

(٤٧) Charles, Roux, J. : L'Isthme et le Canal de Suez, T. I,, p. 45

وقد اتجه السلطان قونصوه الغورى الى مواجهة النشاط البرتغالى بالقوة عندما أصدر أمره فى سبتمبر سنة ١٥٠٥ باعداد حملة حربية بقيادة الامير حسين الكردى نائب جده ؛ وتكونت من خمسين سفينة من نـــوع «الاغربة» وتحركت الحملة من القاهرة وسارت فى النيل عن طريق القناة (خليج أمير المؤمنين) فى شرق الدلتا الى البحيرات المــرة الى السويس ومنها الى ينبع فجده ، ثم غادرت جدة واستولت فى طريقها على سواكن عام ١٥٠٦ وسوف نتحدث عن هذه الحملة بالتفصيل عند معالجة الاثر الاستراتيجى ، غير أنه يهمنا أن نشير فى هذا الصدد الى أن الغورى قــد أرسل سفيره الترجمان تغرى بردى الاسبانى بنداء الى أوربا فى أبريل سنة ١٥٠٦ ؛ واستغرقت رحلة هذا الترجمان ثمانية عشر شهرا ، زار فيها قبرص التابعة للسلطنة المملوكية آنذاك ، وأصطحب منها من أرشده الى رودس حيث استقبله الرئيس « امرى دامبواز «Aimery d' Amboise ثم خرج تغرى بردى من رودس الى البندقية حيث وقع اتفاقية تجارية جديدة معها . ولم تحقق هذه السفارة كسابقتها أى جدوى كما حدث مع سفارة الراهب مورو من قبل ؛ وعاد تغرى بردى الى مصر فى سبتمبر عام ١٥٠٧ (٤٨) .

وعندما يئست البندقيـــة من مقـــدرة المـــاليك على التغلب على البرتغاليين واعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدى القديم ، فانها لجأت الى التعاون مع الصفويين علهم ينجحون فيما فشل المـــاليك فى تحقيقه ؛ مما أدى الى تدهور العلاقة بين السلطنة المملوكية والبندقية . اذ حدث أن قبض السلطان الغورى على بعض البنادقة ومعهم خطابا من

---

(٤٨) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص٢٩٦ .

الشاه اسماعيل الصفوى للاستعانة بدولة أوربيه للقيام بهجوم بحـــرى على سواحل مصر ، على حين يقوم الصفوى بمهاجمتها برا ، ولم يذكر ابن اياس اسم هذه الدولة ، ولكن المصادر الاوربية أشارت الى أن هذه الدولة هى جمهورية البندقية ، وهذا ما جعل السلطان الغورى يقبض على قنصل البندقية فى دمشق ، وجىء به مكبلا الى القاهرة ، كما قبض على زملائه الاخرين فى طرابلس والاسكندرية ، وحقق معهم ، وحينئذ لم يسع الغورى الا أن ينفذ ما سبق أن هدد به وهو قفل الاماكن المقدسة فى القـــدس ، فقبض على جميع مسيحيى القدس وأغلق كنيسة القيامة وصادر محتوياتها فى يناير سنة ١٥١١ ، وفى نفس الوقت علم بخيانة الترجمان تغرى بردى، اذ كاتب الدول الاوربية بضعف المماليك الحربى وعدم تحصين السواحل المصرية التحصين الكافى فقبض عليه فى مارس ١٥١١ (٤٩) .

وقد توالت احتجاجات الدول الاوربية على تصرف الغورى ، وجاءت الى مصر سفارة فرنسية من قبل الملك لويس الثانى عشر ملك فرنسا فى مارس سنة ١٥١٢ ، وكان هدف هذه السفارة عقد اتفاق تجارى مع مصر واطلاق حرية التجارة فى موانى مصر والشام والسماح للحجاج بزيارة الاماكن المقدسة كالمعتاد ، ووعدت السفارة بمساعدة فرنسا ضد بلاد البرتغال ، غير أن السفير الفرنسى لم ينجح الا فى اطلاق سراح الاسرى الفرنسيين. ولما انتشرت أنباء السفارة الفرنسية ، أسرعت البندقية وأوفدت بعثـــة دبلوماسية على رأسها « دومينكو تريفزانى «Domenico Trevisani» واستطاع هذا السفير أن يعقد أول اجتماع مع السلطان الغورى فى مايو سنة ١٥١٢م ، وبدأت البعثة عملها وفق برنامج مفصل محدد فى لين وسلاسة

---

(٤٩) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

مع شيء من العناد والصلابة يحمل على الاعجاب • وكان يظاهر البعثة بعض قطع من الاسطول التجارى البندقى الذى مر بكريت وقبرص والاسكندرية ، فسر السلطان الغورى مما أظهره البنادقة ، أصدقاؤه القدماء ، من اخلاص ، ونجحت مهمة السفير فى اطلاق سراح المسجونين ، وأعيدت الصداقة والصلة بين السلطنة المملوكية والبندقية ، وتعهد البنادقة بتزويد المماليك بالاسلحة والاخشاب لمواصلة نضالهم ضد البرتغاليين ، ثم غادر « تريفزانى » مصر فى أغسطس سنة ١٥١٢م [٥٠] • ومن الواضح أن الغورى كان يهدف آنذاك الى تجديد علاقاته مع البنادقة حتى يحصل على مساعداتهم له فى مواجهة النشاط البرتغالى المتزايد فى البحار الشرقية •

وعندما تم للعثمانيين السيطرة على مصر بدخول السلطان سليم الاول مدينة القاهرة فى اليوم الثالث من شهر المحرم عام ٩٢٣هـ الموافق السادس والعشرين من شهر يناير عام ١٥١٧م وامتدت اقامته فيها ثمانية أشهر ، فقد أدرك العثمانيون اهمية مصر كمعبر للتجارة العالمية ، ومدى ما أصابها من تدهور اقتصادى نتيجة لتحول هذه التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدى البرتغاليين منذ وصولهم الى الهند فى سنة ١٤٩٨ • ولهذا فقد حرص السلطان سليم الاول على انعاش حركة التجارة ، التى كان يرد الى مصر آنذاك جزء منها عبر الطرق البرية ، ومن المناطق المطلة على البحر الاحمر والخليج العربى الداخلية ، أى من النواحى الواقعة شرقى مصر وجنوبها وغربها ، والتى كان من دواعى استمرار الحركة التجارية فيها رحلة الحج الى الاراضى المقدسة فى الحجاز حيث كان الحجاج

---

(٥٠) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص٢٩٨ •

يحضرون معهم الكثير من المتاجر الشرقية لتغطية تكاليف رحلتهم ؛ ولممارسة النشاط التجارى عبر الطرق المذكورة • ولهذا فقد أراد السلطان سليم أن يضمن تسويق ما يصل الى مصر من هذه التجارة عن طريق البنادقة الذين يقومون بتوزيعها فى أوربا وذلك بعقد معاهدة تجارية معهم لهذا الغرض • وكان للعثمانيين خبرة سابقة فى هذا المجال حيث عقد السلطان محمد الثانى الفاتح اتفاقية مع الجنويين فى الحادى عشر من مارس عام ١٤٥٤ ؛ واتفاقية أخرى مع البنادقة فى الثامن عشر من أبريل من نفس السنة اى فى العام الثانى مباشرة لفتح العثمانيين للقسطنطينية [٥١] •

وهكذا عقد السلطان سليم الاول معاهدة مع البندقية فى الثانى والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣هـ الموافق الرابع عشر من فبراير عام ١٥١٧م لتشجيع البنادقة على القدوم الى الاسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى فى جو من الطمانينة والعدالة والامن • وقد نشر الاستاذ « اتين كومب «Etienne Combe» نصوص هذه المعاهدة باللغة الفرنسية [٥٢] ونشرت بعد ذلك مترجمة الى العربية (٥٣) وجاءت فى ديباجتها ملاحظة تفيد بان التعليمات التى أوردتها موجهة بصفة خاصه الى حاكم مدينة الاسكندرية وموظفيها العموميين ومفتشى وضباط الشرطة كى يحاطوا علما بما تم الاتفاق عليه بين المتعاقدين على الامتيازات السابق منحها لهم ايام المماليك بعد موافقة السلطان سليم الاول عليها • واشارت

---

(٥١) نعيم زكى فهمى (دكتور) . المرجع السابق ؛ ص ٤٢٥ — ٤٢٨ .

(٥٢) Crombe. E. : Precis de I Histoire d' Egypte T. III. p.6 ff. (Wiet. G). I : Traite : Veneto - Turc De 1517.

(٥٣) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ص ٤٢٩ — ٤٣٥ . عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها الجزء الثانى ص ٧٠٠ — ٧٠٦ .

المادة الاولى من هذه المعاهدة الى أن جميع البرءات الممنوحة للبنـادقة من قبل صار الموافقة والتصديق عليها ، وان رعايا البندقية يعاملون بالعدل ويقابلون بترحاب من الجميع ولايحق لاى فرد أن يهينهم أو يتكبر عليهم فى الموانى المصرية عامة ، وان من حقهم البيع والشراء والاخذ والعطاء ، ولايدانوا لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الامم الاخرى بالمدن المصرية ، وان يعلن هذا لجميع القضاة والهيئات المسئولة ، وليس من حق اى فرد الخروج على هذه القوانين ، كما يجب معاملتهم حسب الاصول والعادات المرعية بدون أى تغيير أو تعديل . ؟

وأوردت المـادة الثانية من هذه المعاهدة بين العثمانيين والبنادقـة الالتزام بعدم تكدير البنادقة أو الاستيلاء على ممتلـكاتهم أو متاجـرهم بالقوة أو على مراكبهم أو ما فى داخل مخازنهم ، كما لا يحق لاى فرد أن يجبرهم على البيع اذا لم يوافقوا على ذلك ، كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية أو لا لزوم لها .بينما أشارت المـادة الثالثة الى أنه بامكان قنصل البندقية أن يبيع ويشترى بالنقد بدون حدود . وحددت المـادة الرابعـة أن القنصل يحصل على مرتبه مجمدا كل أربعة شهور . وأشـارت المـادة الخامسة الى أن القنصل دون سواه هـو الذى يباشر الشئون القانونيـة والقضائية لمواطنيه ويبت فى الامور لصالحهم . أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ الى القضاء الوطنى الاسلامى لينقض قانونا أو حكما أصدره القنصل ، فلا يستمع له ولا يحق للقاضى استقباله أو نظر شكواه وعليه أن يعيده الى قنصله ، واذا رغب القنصل فى طرد أحد البنادقة فعلى القاضى أن يعينه فى ذلك . كما منح القنصل حق ابداء الرأى فى سفر الافراد على سفن بلاده ، ولا يحق لاى فرد كان أن يغادر الاسكندرية على ظهـر

احدى سفن البندقية ليعود الى وطنه آو يبارحها لاى قطر شاء الا بعـد الحصول على تأشيرة خروج من القنصل نفسه .

وحددت المـادة السادسة من المعاهدة الاجراءات المسموح باتخاذها ازاء سفن البنادقة عند وصولها الى الاسكندرية فأشارت الى أنه اذا وصلت اى سفينة من البندقية الى الاسكندرية أو باسم البنادقة ، فلا يحـق لاى موظف أن يرتقيها ويحصل منها على ما يريد من معلومات أو بيانات ، ولا أن يحتك بأى فرد من أفرادها ويسمح لهم بصعود السـفينة فى حالة الشراء فقط ، ويدخل ضمن السلع المشتراه السلع التى تحملها السفن « كالعسـل والفاكهة » . وحرمت المـادة السابعة على أى فرد سواء كان حاكم مدينة الاسكندرية أو عين من أعيانها أو تجارها أو أى فرد من أفراد الشعب أو لقبطانها على سفن الميناء أن يستولوا على أى سفينة للبنادقة تصل للميناء ، أو على حمولتها أو قلوعها أو مجاديفها لاى سبب سـواء كان قرضـا آو شراء . وأشارت المـادة الثامنة الى أنه يصير تنفيـذ كل التجـديدات أو المبانى اللازمة أو الاعمال الضرورية فى فندق البنادقة . واذا رغب القنصل فى بناء مبنى جميل خاص به فله ما يشاء ، وممنوع منعا باتا التعرض له أو رفع أجور العمال أو أسعار المواد اللازمة للبناء ، وممنوع على أى فـرد مضايقتهم أو التعرض لهم اذا رغبوا فى استخدام صناع من البندقية أو من الاجانب دون الوطنيين . ونصت المـادة التاسعة على أنه اذا رغب قنصل البندقية فى مقابلة أى فرد من الحكومة فى دواوينهم وامتطى صهوة جواده آو رغب فى الخروج الى الحدائق العامة أو أى مكان فى أطراف الاسكندرية فله أن يفعل ما يشاء وليس لاى فرد أن يعترضه .

وقد أشارت المادة العاشرة الى أن السلع الخاصة بالبنادقة والتى تتعرض للغرق يصير انقاذها وترد لاصحابها ، أما السلع التى تقذفها

الامواج الى الشاطىء نتيجة الغرق لاحدى السفن فهى ترد لاصحابها ان عرفوا أو اثبتوا شخصياتهم وملكياتهم لهذه السلع أو ترد لقنصل البندقية أما بالنسبة للسفن التى تصل للشاطىء سليمة بعد انقاذها فيجب صيانتها وجاء فى المادة الحادية عشر أن سفن البنادقة التى تلجأ لميناء الاسكندرية لسوء الاحوال الجوية ولا ترغب فى تفريغ حمولتها لها أن تتم رحلتها اذا لم يكن عليها سلع للاسكندرية ، واذا كان عليها سلع خاصة بالاسكندرية فلا يحق لها أن تفرغها فى أى ميناء الا فى الاسكندرية نفسها • واذا كانت هذه السفن تحمل سلعا لم ينص عليها فى المعاهدات ولا يتاجر فيها الا فى الاسكندرية فتمنع من التعامل أو الملاحة على طول سواحل مصر •

أما بالنسبة للعلاقات السياسية فقد أوردت المادة الثانية عشرة من المعاهدة المعقودة بين البندقية والسلطان سليم الاول عام ١٥١٧ أنه اذا حدث أى حادث لاحد رعايا السلطان فى البندقية أو الجزر التى تقع تحت سيطرتها فلا يسأل القنصل عن هذا ؛ كما أنه لا يتحمل النتائج المترتبة على الحادث • أما من يكون مديونا لاحد رعايا السلطان فانه يحجز حتى يوفى الدين ويسرى ذلك على الضامن ، ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان فى أمان تام فى موانى البندقية والبلاد الخاضعة لها • كما أعفت المادة الثالثة عشرة القنصل البندقى من دفع ضريبة الايراد أو ضرائب أخرى ما عدا فى حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء • واشترطت المادة الرابعة عشرة أنه اذا أسر القراصنة على أسر سفن للبنادقة ثم جاءوا لبيعها فى موانىء السلطان فمحظور على أى فرد شراؤها أو التعامل مع القراصنة ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر وردها للتجار • ونصت المادة الخامسة عشرة من المعاهدة أنه اذا حدث خلاف بين عربى وأجنبى سواء كان من البنادقة أو من غيرهم أو القنصل أو تاجر أو أى

مواطن عادى أو عضو فى وكالتهم فلا يحق لاى فرد اهانته أو الحاق الضرر به • واشترطت المادة السادسة عشرة أن كل هذه المنح والشروط والامتيازات الممنوحة للبنادقة تسجل فى سجل خاص ويتعرف عليها كل مسئول بالولاية وكل من له علاقة بالاجانب أو بالحكم فى مصر • وبموجب المادة السابعة عشرة يكون لقنصل البندقية السلطة التامة اذا رغب فى أن يقيم نائبا عنه « قنصل بالنيابة » أو نائب قنصل فى البرلس وله أن يفعل ذلك كلما شاء دون استئذان السلطان •

وقد قررت المادة الثامنة عشرة أن قنصل البنادقة قد عرض أنه حسب المعتاد آنذاك كانت تصل بعض السفن من كريت أو اقطار تابعة للبندقية تجلب كميات من الزيت اللازم للسفن وكان المعتاد بيعها على السفن ولكن سلطات الاسكندرية كانت ترفض هذا البيع لكى تبيع مالديها فى مستودعاتها • هذا الامر كما أشارت تلك المادة كان ينبغى أن يتدارك : فسفن البندقية كانت تستطيع منذ عقد المعاهدة فصاعدا بيع هذا الزيت دون انزاله للساحل ولا يعترضها أى فرد • وفى حالة وصول هذه السفن الى بولاق تتبع القواعد المرسومة فى هذا الميناء • وقد أشار قنصل البندقية — فى المادة التاسعة عشرة — الى العبيد والفقراء الاجانب الذين يعيشون فى الاسكندرية واعتادوا الورود الى فندق البنادقة لكى يأكلوا • وكان اذا مات أحد العبيد بالفنادق فالقنصل مطالب بدفع ثمنة : وكان الثمن يفرض مرتفعا : وقد اشترطت هده المادة أن هذا يصير ممنوعا منذ ذلك الحين • كذلك حظرت المادة العشرون على موظفى الجمرك والحمالين والكشافين مضايقة البنادقة فى حالة اعادة تسليمهم الفواكه أو سلع أخرى تحملها سفنهم • وفيما يتعلق برسوم وأجور الحمالين والكشافين فقد نصت المادة الحادية والعشرون : على أن يدفع دينار واحد عن كل سلة توابل مملوءة ويحملها الكشاف البحرى

ويحصل الحمال على دينار واحد عن كل سلة يحملها . وقررت المادة الثانية والعشرون انقاص وتخفيض الضرائب التى تدفع عمن يموت من الاجانب فى بلاد السلطان . كما قررت المادة الثالثة والعشرون أن الافرنجى الذى يرد للقاهرة من الاسكندرية أو رشيد او دمياط لا تحصل منه ضرائب لا فى حله ولا فى ترحاله . واختصت المادة الرابعة والعشرون من المعاهدة المعقودة بين السلطان سليم الاول والبندقية عام ١٥١٧ بالاشارة الى أن السماسرة الذين يعملون لدى الوسطاء التجاريين لهم حق استخدام تراجمه ولا يمنع عنهم معاونة التراجمة الرسميين لقاء رسوم معينة . كما قررت المادة الخامسة والعشرون أنه فى حالة نقل البضائع المستوردة المصدرة من الجمرك للسفن وبالعكس لا يطلب القنصل ولا التاجر بشىء ما ، كما لايحق منع التجار من توزيع وبيع الفواكه المحفوظة والسمك والطازجة للمسافرين . هذا بينما حددت المادة السادسة والعشرون أ لايجوز اطلاقا مضايقة القنصل أو التجار أثناء تجوالهم وتنزهم فى حدائق الاسكندرية وعلى ضفاف القناة أو فى أى مكان آخر . وأكدت المادة السابعة والعشرون على حق التجار البنادقة فى شحن وتوزيع وتفريغ سلعهم قواربهم وسفنهم الخاصة ، كما أكدت المادة الثامنة والعشرون أن للبنادقة حق شحن وتوزيع وتفريغ سلعهم فى قواربهم وسفنهم الخاصة . وسوغت المادة التاسعة والعشرون للكشافيين بالقيام بعملهم فى حالات الشحن والتفريغ يكون بموافقة ومرافقة البنادقة . وما يفسده أو يستهلكه الحمالون يجب أن يعوض عنه البنادقة .

واشترطت المادة الثلاثون ، بأنه لا يتصدى أى فرد للقنصل أو لتجار البنادقة الا عن طريق القضاء وأمام المحاكم ، ويراعى ألا يؤخذ الابن بجريرة الاب ، ولا الاب بجريرة الابن ، الا اذا كان أحدهما ضامنا للاخر

شخصيا وماليا ، أما الديون فاستعادتها تكون حسب الشريعة • كما اشترطت المادة الحادية والثلاثون كذلك أن جميع التجار ومرافقوهم الذين يصلون الى موانى مصر يعاملون بكل احترام واعتبار من الجميع • وفى خاتمة المعاهدة نصت المادة الثانية والثلاثون على أن قنصل البندقية فى الاسكندرية قد قدم مذكرة قرر فيها أن البنادقة كانوا يتمتعون أيام دولة المماليك الشراكسة بالاعفاء من ضريبة البهار • ولكن حدث أن فرضت حكومة السلطان قانصوه الغورى رسوما جديدة بلغت خمسة آلاف دينار سنويا • ويطالب القنصل باعادة تقرير هذا الاعفاء الضريبى وتقرر الاستجابة لهذا الطلب •

كانت هذه هى البنود الثانية والثلاثون للمعاهدة التى عقدت بين السلطان سليم الاول والبنادقة عقب فتح العثمانيين لمصر فى سنه ١٥١٧ • وهى تشكل دليلا تاريخيا على حرص الاتراك العثمانيين على تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى والاقتصادى مع مصر التى غدت ولاية عثمانية حتى تعود الحركة التجارية بقدر الامكان الى نشاطها المعهود قبيل تحول التجارة العالمية الى طريق رأى الرجاء الصالح • ولاشك ان هذه المعاهدة تعد أبلغ رد على الفرية التى يرددها بعض المؤرخين والباحثين المتحاملين على الدولة العثمانية والذين يدعون أنها فرضت على ولاياتها العربية العزلة عن أوربا • كما أن هذه المعاهدة تميزت بوجود فارق بينها وبين المعاهدات التى عقدها السلطان سليمان المشرع وخلفاؤه تباعا مع الدول الاوربية فى هذا الصدد • فبينما كان الهدف من المعاهدات الاخيرة هو تشجيع رعايا الدول الاوربية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية بوجه عام ، فقد كانت معاهدة البندقية تستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى فى

مصر والاسكندرية بوجه خاص . كذلك ترجع أهمية معاهدة البندقيــــة الى أن كثيرا من نصوصها ، او نصوصا على غرارها ، قد أدرجت بعد ذلك فى المعاهدات اللاحقة التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الاوربية ، اذ كان هناك تنافس بين الدول على الحصول على أكبر قدر من الامتيــازات لرعاياها آنذاك ، فكانت كل دولة أوربية تحرص على أن تجىء المعــاهدة التى تعقدها مع الدولة العثمانية جامعة وشاملة لكل الامتيازات التى سبق تقريرها لغيرها (٥٤) .

ففى عهد السلطان سليمان المشرع خطت الدولة العثمانية خطوات هامة فى سياسة الانفتاح تجاريا مع عدد من الدول الاوربية لتنشيط الحركة التجارية التى أصابها الضعف الملحوظ عقب تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح . اذ عقد السلطان سليمان المشرع مع فرانسوا الاول ملك فرنسا معاهدة عام ١٥٢٨ جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التى سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك الجراكسة للفرنسيين « وأهــل كتالونيا Les Catalans وكانت المعاهدات الجديدة تكفل لتجار فرنسا ورعاياها الامن والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم ومتاجرهم فى اثنـــاء تواجدهم فى ممتلكات الدولة . كما تكفل لهم حرية المتاجرة والتنقل برا وبحرا دون أن يمسهم سوء ودون أن يتعرضوا لمضايقات من السلطات العثمانية . بل انها تنظم اقامتهم فى احياء او خانات خاصة مع عدم المساس بكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليها . كما تمنع السفن العثمانيــة التى تقوم برحلات بحرية بين استانبول وموانى الشام ومصر من عرقلة

---

(٥٤) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلاميه مفترى عليها : ص٧٠٦—٧٠٧ .

نشاط السفن الفرنسية التى تعمل على هذه الخطوط الملاحية • وترتبط معاهدة ١٥٢٨ بمعاهدة البندقية لعام ١٥١٧ من حيث الهدف ، اذ كانت موادها مقصورة فى الغالب على بلاد الشام ومصر بعامة ، والاسكندرية بخاصة •

ولاشك أن ابرام هذه المعاهدة كان مشجعا لملك فرنسا «فرنسوا الاول» والسلطان سليمان المشرع ، نظرا للعلاقات الودية الوثيقة بينهما ، على عقد معاهدة هامة أكثر شمولا عرفت باسم « معاهدة صداقة وتجارة بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا » وقد عقدت فى شهر فبراير سنة ١٥٣٥ وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائر رعاياها الذين يذهبون الى أقاليم الدولة العثمانية بعض الامتيازات فى مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مناسبة مماثلة لها تقريبا • وسوف نعرض فيما يلى لنصوص هذه المعاهدة لابراز أهميتها فى تنفيذ سياسة التنشيط التجارى التى تبنتها الدولة العثمانية مع الدول الاوروبية وخاصة المطلة منها على البحر المتوسط لتعويض ما فقدته من نشاط تجارى نتيجة لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح عن مصر وعالم البحر المتوسط منذ نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر الميلاديين •

ونقع معاهدة عام ١٥٣٥ بين الدولة العثمانية وفرنسا فى ست عشرة مادة وقررت المادة الاولى منها السماح لرعايا الدولة العثمانية وفرنسا وتابعيهم بالتجول فى جميع ممتلكات الدولتين بما فيها المدن والثغور والجزر وسائر الاقاليم التى تدخل فى حوزة كل من السلطان وملك فرنسا ، على أن يكون هذا التجول بهدف ممارسة العمليات التجارية والعودة الى بلادهم بكامل حريتهم دون أن يقع اعتداء عليهم أو على متاجرهم • بينما نصت المادة الثانية على أن العمليات التجارية تشمل البيع والشراء والمبادلة فى كافة السلع غير الممنوع الاتجار فيها ، ونقلها برا وبحرا بعد سداد الرسوم

المقررة ، بحيث يدفع الفرنسيون فى أقاليم الدولة العثمانية ما يدفعه العثمانيون ، وأن يسدد العثمانيون فى فرنسا ما يدفعه الفرنسيون ، دون أن يدفع أى من الطرفين ضرائب أو مكوسا جديدة أخرى .

وجاء فى المادة الثالثة من هذه المعاهدة أنه « فضلا عن هذا ، كلما يعين ملك فرنسا فى استانبول [٥٥] ، أو بيرا أو غيرهما من مدن الدولة العثمانية أحد رجال القانون ، كالقنصل المعين حاليا فى الاسكندرية ، فيجب أن يقابل هذا القانونى والقنصل بطريقة لائقة ، وأن يحتفظ كل منهما بسلطته الخاصة بحيث يكون لكل منهما الحق فى المحل فى جميع القضايا والخلافات المدنية والجنائية التى تقع فى دائرته ، طبقا لعقيدته وقانونه بين التجار ورعايا ملك فرنسا الاخرين ، بدون أن يمنعه من ذلك أى قاض أو صوباشى [٥٦] ، أو أى موظف آخر . ولكن اذا رفض أحد من رعايا ملك فرنسا اطاعة الاوامر الصادرة من القانونى أو القنصل فلهما فى هذه الحالة فقط أن يستعينا بالصوباشى أو أحد ضباط السلطان فى تنفيذ الاحكام . وعلى هؤلاء الصوباشية أو الضباط الاخرين أن يقدموا مساعدتهم الضرورية والتى تكفل اجبار الاخرين على تنفيذ أحكامهم . ولكن ليس للقاضى أو أى ضباط تابعين لحكومة السلطان أو يحكموا فى المنازعات التى تنشأ بين التجار ورعايا ملك فرنسا ، حتى لو طلب التجار المذكورون ذلك . واذا نظر القضاة بمجرد المصادفة فى قضية فأن حكمهم يكون لاغيا وباطلا .

أما المادة الرابعة من المعاهدة العثمانية الفرنسية عام ١٥٣٥ فقد منعت استدعاء أو الاعتداء على التجار ورعايا ملك فرنسا ، أو محاكمتهم

---

(٥٥) وردت فى النصين الفرنسى والانجليزى « القسطنطينية » وهذا مادرجت عليه المصادر والمراجع الاوربية من الاصرار على تسمية استانبول بالقسطنطينية من قبيل التعصب للتسمية المسيحية البيزنطية من قبل .

(٥٦) الصوباشى لفظة تعنى ضابط فى الجيش العثمانى ويكلف أحيانا بالعمل « كمتسلم » على مدينة أو حاكم لتقسيم ادارى صغير .

فى الدعاوى المدنية التى يقيمها عليهم العثمانيون أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ، مالم يكن بيد المدعين مستندات بخط المدعى عليهم ، أو حجة رسمية صادرة من القاضى الشرعى أو رجل القانون الفرنسى أو القنصل . وفى حالة وجود هذه المستندات والحجج لا يجوز للقضاة الشرعيين أو الصوباشية أو أى موظفين آخرين سماع الدعوى ومحاكمة هؤلاء الرعايا الفرنسيين الا فى حضور ترجمان قنصل فرنسا . كما نصت المادة السادسة من تلك المعاهدة على أنه لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وخدمهم وجميع رعايا ملك فرنسا الاخرين فيمـا يختص بالمسائل الدينية أمام القضاة الشرعيين والصناجق البكوات والصوباشية أو غيرهم ، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالى . ولا يمكن اعتبـارهم مسلمين أو النظر اليهم على أنهم مسلمون الا اذا رغبوا فى ذلك واعترفوا صراحة وبدون اكراه يقع عليهم . ولهم الحق فى ممارسة شعائر دينهم .

أما المادة السابعة من المعاهدة العثمانية الفرنسية المعقودة عام ١٥٣٥ فانها تنص على أنه اذا تعاقد شخص أو أكثر من شخص من رعايا ملك فرنسا مع أحد العثمانيين أو اذا استولى على سلع منه أو اقترض مبالغ، ثم غادر بلاد جلالة السلطان قبل أن يقوم بالوفاء بالتزاماته أو ديونه ، فلا يسأل رجل القانون الفرنسى أو الفرنسى أو القنصل أو أقـارب المدين أو أى شخص فرنسى آخر عن ذلك مطلقا ، ولا يتعرض له أحد بالايذاء ولا يكون ملك فرنسا ملزما بشىء . ولكن يمكنه أن يستوفى طلب المدعى من المدعى عليه ، ومن أملاكه لو وجدت له أملاك فى الاراضى الفرنسية . كما نصت المادة الثامنة على أنه لا يجوز القاء القبض على تجار فرنسـا ووكلائهم وخدمهم وسائر الرعايا الفرنسيين ، واكراههم على العمل فى خدمة السلطان العثمانى أو أى شخص آخر فى البر والبحر ، مالم يكن باختيارهم

وطوعهم • وكذلك لا يجوز استخدام سفنهم أو قواربهم أو ما يوجد بها من معدات أو مدافع أو ذخائر أو سلع الا بموافقتهم ورضائهم •

وقررت المادة العاشرة أنه بمجرد تصديق السلطان وملك فرنســا على هذه المعاهدة فان جميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهما أو على سفنهما أو فى أى مكان تابع لسلطتهما ، فى حالة الرق ، سواء كان ذلك بشرائهم أو بوقوعهم فى الاسر وقت الحرب أو باحتجازهم . يطلق سراحهم فورا بمجرد طلب وتقرير من السفير أو القنصل أو أشخاص آخرين يعينون لهذا الغرض • واذا كان أحد الاسرى قد تحول عن دينه فلا يكون تغيير عقيدته الدينية مانعا من اطلاق سراحه • كما أوردت تلك المــادة أنه « من الآن فصاعدا لايجوز للسلطان ، ولا لملك فرنسا ، ولا لقادة الاساطيل البحرية ، ولا لقواد الجيش ، ولا لاى أشخاص آخرين تابعين لاحد العاهلين أولمن يستأجرانهم لذلك ، سواء فى البر أو فى البحر ، أخذ أو شراء أو بيــــع أو حجز أسرى الحرب بصفة أرقاء • واذا حاول أحد القراصنة أو غيره من رعايا العاهلين أسر أحد رعايا الطرف الاخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله، فيجب احاطة حاكم الجهة علما بذلك ؛ وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته بتهمة تعكير السلام بين الدولتين ، وليكون عقابه عبرة لغيره ، ورد ما يــكون عنده من الاشياء المغتصبة الى من أخذت منه • واذا لم يضبط الجانى فورا واستطاع الهرب دون محاكمة فيجب نفيه من بلاده مع جميع شركائه • وتقوم الحكومة التابع لها هؤلاء الجناة بمصادرة ممتلكاتهم ، ودفــــع التعويضات عن الاضرار التى أصابت المجنى عليه ، من ممتلكات الجــناة وهذا لا يمنع من مجازاتهم اذا تم القبض عليهم فيما بعد • وللمجنى عليه أن يستعين على الحصول على التعويضات من ضامن هذا الصلح ، وهمــا السر عسكر عن السلطان ، وأكبر القضاة عن ملك فرنسا •

ونصت المادة الثانية عشرة على أنه اذا وصلت الى أحد موانى أو سواحل الدولة العثمانية احدى السفن التابعة لرعايا ملك فرنسا سواء كان وصولها بطريق الصدفه أو غيرذلك فيجب تزويدها بما يلزمها من مواد تموينية وغيرها من الضروريات فى مقابل دفع الثمن المناسب بدون الزامها بتفريغ شحناتها أو دفع رسوم ، ثم يباح لها السفر الى حيث تريد • واذا وصلت الى استانبول وأرادت السفر منها بعد حصولها على جواز الخروج من أمين الجمرك ، ودفع الرسوم المقررة ، وتفتيشها بمعرفة أمين الجمرك المشار اليه ، فلا يجوز زيارتها أو تفتيشها فى أى مكان آخر ، الا عند الحصون المقامة عند مدخل بوغاز غاليبولى ، بدون أن تدفع شيئا مطلقا لرحيلها ، سواء عند هذا البوغاز أو فى أى مكان آخر خروجها ، سوى ما سبق دفعه ، سواء كان الطلب باسم السلطان أو أحد ضباطه •

وأشارت المادة الثالثة عشرة أنه اذا تحطمت أو غرقت بطريق الصدفة أو غير ذلك احدى السفن التابعة لرعايا أحد العاهلين فى البلاد التابعة لهما ولقضائهما ، فان جميع الافراد الناجين من هذا الخطر يظلون متمتعين بحريتهم ، ولا يحال بينهم وبين أخذ أو جمع ما يكون لهم من الامتعة وغيرها • أما أذا غرق جميع من بها فان البضائع التى يمكن انقاذها تسلم الى القنصل أو أحد رجال القانون فى القنصلية أو من يمثلهما ، ليسلمها الى من تتعلق بورثتهم ، بدون أن يستولى القبود ان باشا أو الصنجق بك أو الصوباشى أو القاضى أو أى ضابط أو احد رعايا السلطان على شىء منها ، والا توقع عليهم العقوبات • وعلى هؤلاء أن يقدموا التسهيلات والمساعدات لمن يعهد اليهم باستعادة البضائع •

كما نصت المادة الرابعة عشرة على أنه اذا هرب أحد العبيد التابعين

لاحد رعايا السلطان وادعى هذا العثمانى أن عبده قد لاذ بأحد رعايا ملك فرنسا وخدم فى سفينته أو فى منزله ، فان هذا العثمانى لا يستطيع أن يجبر الفرنسى على عمل شىء سوى السماح له بالبحث عن العبد فى سفينته أو فى داره . واذا أسفر البحث عن العثور على العبد فان الفرنسى يعاقب بمعرفة قنصله ويرد العبد لسيده . واذا لم يوجد العبد فى سفينته أو دار الفرنسى ، فيجب ألا يتعرض الفرنسى للايذاء مطلقا ، وعلى أى نحو من الانحاء بسبب هذا الحادث .

أما المادة الخامسة عشرة فقررت أن كل فرد من رعايا ملك فرنسا لم يكن قد اقام بأراضى الدولة العثمانية مدة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع لا يلزم بدفع الخراج أو أى ضريبة أيا كان اسمها ، ولا يلزم بحراسة الاراضى المجاورة أو مخازن السلطان ، ولا بالعمل فى ترسانة ، أو أى عمل اخر بطريق الاكراه . وينمح رعايا الدولة العثمانية امتيازات مقابلة فى بلاد فرنسا . وتضمنت المعاهدة اقتراح ملك فرنسا بدعوة البابا وملك انجلترا ، أخيه وحليفه الابدى ، وملك اسكتلندا للانضمام لهذه المعاهدة .

وأخيرا قررت المادة السادسة عشرة من المعاهدة العثمانية الفرنسية المعقودة عام ١٥٣٥ أن يتم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة بمعرفة العاهلين فى خلال ستة اشهر من تاريخ التوقيع عليها ، مع الوعد من كليهما بالمحافظة على تنفيذها ؛ والتنبيه على جميع القضاة والضباط ورعاياهما بمراعاة جميع احكامها بكل دقة . وحتى لا يدعى أحد الجهل بها ، يجب نشر نسخ منها بعد التصديق عليها فى استانبول والاسكندرية ومارسيليا

ونار بورن Narbonne ، وفى جميع المدن والموانىء المشهورة التابعة لكل من الطرفين (٥٧) .

وتجدر الاشارة الى أن هذه المعاهدة العثمانية الفرنسية التى عقدت فى عام ١٥٣٥ بين السلطان سليمان المشرع والملك فرانسوا الاول قد جددت بعد ذلك عدة مرات وأضيفت اليها أحكام جديدة فى أعوام ١٥٦٩ ، ١٥٨١، ١٥٩٧ ، ١٦٠٤ ، ١٧٣٩ . كما أصبحت هذه المعاهدة تجدد تلقائيا كلما ارتقى عرش الدولة العثمانية سلطان جديد . وقد أرسى هذا التقليد فى اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو عام ١٧٤٠ السلطان العثمانى محمود الاول (١٧٣٠ ـ ١٧٥٤) اعترافا منه بفضل فرنسا حين تدخل فى صيف عام ١٧٣٩ « الماركيزدى فيلنيف Marquis de Villeneuve» السفير الفرنسى فى بلغراد لانهاء حالة الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا . وكان من نتائج مساعيه الحميدة ابرام معاهدة بلغراد فى اليوم الثامن عشر من سبتمبر عام ١٧٣٩ (٥٨) .

وتجدر الاشارة كذلك الى أن تلك المعاهدة العثمانية الفرنسية التى عقدت عام ١٥٣٥ قد نصت فى مادتها الخامسة عشرة على دعوة ملك انجلترا وغيره الى الانضمام اليها والاستفادة من أحكامها ، بشرط أن يقوم ملك انجلترا بابلاغ السلطان العثمانى ، فى خلال ثمانية شهور من تاريخ التوقيع على المعاهدة بصدور تصديق الحكومة الانجليزية عليها . ويطلب اعتماد هذا التصديق اذ اراد السلطان سليمان المشرع وفرنسوا الاول ، تحويلها من معاهدة ثنائية الى معاهدة جماعية ، حتى تتحقق أكبر فائدة منها فى

---

(٥٧) Hurewitz, J. C.: Diplomacy in the Near and Middle East, vol.I. pp. 1-5

(٥٨) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ٢ ، ص ٧٠٨—٧١٤ .

تنشيط الحركة التجارية فى البحر المتوسط . بعد أن أضعفها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء منذ مطلع القرن السادس عشر • غير أن هذه الدعوة لم تجد استجابة من ملك انجلترا ، وظلت السفن الانجليزية التى تتردد على الموانى العثمانية تبحر فى الموانى والمياه العثمانية تحت الاعلام الفرنسية ، طبقا لاوامر الحكومة العثمانية • ثم ازداد عدد السفن الانجليزية التى تشق طريقها الى موانى الدولة العثمانية فى الحوض الشرقي للبحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر • وتطلعت انجلترا الى منافسة البنادقة والفرنسيين فى هذه المنطقة (٥٩) ، وبدا ذلك واضحا عندما تمكن أحد التجار الانجليز واسمه « أنطونى جنكنسن Anthony Jenkinson من مقابلة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٥٣ فى حلب ، وهو يستعد للزحف على فارس آنذاك ، ونجح فى الحصول على موافقة السلطان له على الاتجار داخل ممتلكات الدولة العثمانية على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين ، وعلى ألا يدفع أكثر من الرسوم المقررة (٦٠) • على أن هذا الحادث الاول من نوعه لم يفتح لانجلترا عهدا تجاريا مهما على الرغم من الامتيازات الواسعة التى منحها السلطان سليمان المشرع لذلك التاجر الانجليزى (٦١) •

غير أن النشاط التجارى الانجليزى سيزداد بعد ذلك بربع قرن تقريبا ، عندما استقبلت الحكومة العثمانية بعثة انجليزية فى عام ١٥٧٨ ، واستطاعت هذه البعثة أن تحقق نجاحا كبيرا فى وضع الحجر الاساسى

---

(٥٩) Hoskins, H. L.: British Routes to India, p. 2 - 4.

(٦٠) Hurewitz, J. C.: op. Cit., Vol. I. pp. 5 - 6.

(٦١) زكى صالح (دكتور) : مجمل تاريخ العراق الدولى فى العصر العثمانى ص ١٢ .

للتجارة الانجليزية فى الدولة العثمانية بولاياتها المختلفة ومن بينها مصر بطبيعة الحال ، مما كان من شأنه تنشيط الحركة التجارية فى البحر المتوسط التى كان قد أضعفها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح منذ مطلع القرن السادس عشر • وكان من بين معالم هذا النجاح أن السلطان مراد الثالث(١٥٧٤ — ١٥٩٦) أرسل رسالة مؤرخة فى الخامس عشر من مارس عام ١٥٧٩ الى الملكة اليزابيث الاولى ، وكان مما جاء فيها « ان البلاد العثمانية ستبقى دائما مفتوحة للتجار الانجليز ••• ونحن (أى السلطان العثمانى) سوف لا نتقاعس عن تقديم المساعدة والمعونة لاى فرد منهم (أى من الانجليز) يبتغى تقدير صداقتنا واحساسنا ومساعدتنا ، بل سنعد ارضاءهم جزءامن واجبنا » [٦٢] •

على أن هذه الرسالة لم تكن مقنعة فى نظر ملكة اجلترا ، لانها لم تشتمل على تحديد موضوعات تتصل بتيسير ممارسة الرعايا الانجليز نشاطهم التجارى ، وتطلعت الملكة الى عقد اتفاق يكون أوفى بالغرض تخصيصا وشمولا • ومهدت له بمنح التجار العثمانيين امتيازات داخل بلادها تكون مماثلة لما يحصل عليه التجار الانجليز من امتيازات فى بلاد الدولة العثمانية • وما أن تلقى السلطان مراد الثالث الرسالة الملكية حتى أصدر فى شهر يونيو سنة ١٥٨٠ « براءة » تضمن للتجار الانجليز امتيازات واسعة النطاق • وكان مما جاء فيها على لسان السلطان « وعلى هذا فاننا نمنح جميع افراد شعبها ورعاياها حرية المجىء الى امبراطوريتنا بأمن وسلام ، مع كل ما لديهم من متاجر وسلع بحرا فى سفن كبيرة وصغيرة ، وبرا فى عربات ، دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ، ولهم أن يمارسوا

---

(٦٢) زكى صالح (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٤ •

عمليات البيع والشراء دون عائق ، وعليهم أن يراعوا عادات وأوامر بلادهم (الانجليزية) [٦٣] •

وكان من الطبيعى أن تلقى هذه المعاهدة معارضة عنيفة من جانب السفير الفرنسى فى استانبول حتى أنه سعى لدى السلطان لوقف تنفيذها • ونجحت مساعيه ولكن الى أمد قصير • ففى العام التالى مباشرة صدر العقد التأسيسى الاول لانشاء « شركة الليفانت The Levant Company فى الحادى عشر من شهر سبتمبر عام ١٥٨١ ، وهى شركة انجليزية مارست اختصاصات سياسية وتجارية واسعة فى شرقى البحر المتوسط [٦٤] فهى التى كانت ترشح سفراء انجلترا فى استانبول وتدفع لهم مرتباتهم ، وكان جميع قناصل انجلترا وكل موظفيها الدبلوماسيين فى ممتلكات الدولة العثمانية يعدون مستخدمين فى الشركة ويتقاضون منها مرتباتهم • وظل هذا التقليد ساريا اكثر من قرنين حتى سنة ١٨٠٣ • أما الاختصاصات التجارية لهذه الشركة فقد حصلت من الملكة اليزابيث الاولى ملكة انجلترا على حق احتكار المتاجرة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط • وكان نشاطها كثيفا فى الاناضول وحلب والاسكندرونه والاسكندرية وغيرها من أساكل الشام ومصر والساحل الغربى لشبه جزيرة الاناضول • ولم يمتد نشاط الشركة بوضوح الى العراق الذى كان اكثر تأثرا بنشاط « شركة الهند الشرقية الانجليزية «The East India compauy» التى أنشأتها بريطانيا فى ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠ [٦٥] • وفى سنة ١٥٨٣ عينت الحكومة الانجليزية « وليم هاربورن william Harborn » سفيرا لها فى استانبول ومنحته سلطات متشعبة على جميع التجارة الانجليزية فى ولايات الدولة العثمانية وخولته

---

(٦٣) Hurewitz, J. C.: op. Cit., Vol I., p. 7-9.

(٦٤) Epstein, M.: Early History of the Levant Company, p. 52.

(٦٥) Hoskins. H. L.: Op Cit., pp. 4. 5.

اختصاصات واســعة فى تعيين القناصل • وغدا « هاربورن » سفيرا الى جانب صفته كممثل لشركة الليفانت • واستغل هاتين الصفتين فى حمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ معاهدة ١٥٨٠ وقدم مع أوراق اعتماده الهدايا للسلطان وكبار رجال الدولة ، وسرعان ما أثمرت جهوده • وعلى هذا تعتبر سنة ١٥٨٣ بداية التاريخ الفعلى والرسمى لتنفيذ معاهــدات الامتيازات المتبادلة بين التجار الانجليز فى املاك الدولة العثمانية والتجار العثمانيين فى انجلترا • وفى سنة ١٦٠٤ حصلت الحكومة الانجليزية على موافقة السلطان أحمد الاول على أن تبحر السفن الانجليزية داخل المياه والموانىء العثمانية تحت الاعلام الانجليزية ، بينما كانت السفن الاجنبية — باستثناء سفن البنادقة — مضطرة الى رفع العلم الفرنسى • وفى عــام ١٦٤١ عقد الملك شارل الاول ملك انجلترا معاهدة مع السلطان ابراهيــم الاول العثمانى كفلت لشركة الليفانت حرية التجارة فى جميع أنحاء الدولة العثمانية • ثم عقد سلطان محمد الرابع (١٦٤٨ — ١٦٨٧) معــاهدة مع انجلترا فى شهر سبتمبر سنة ١٦٧٥ جددت فيها الامتيازات التجارية التى سبق منحها فى معاهدات سابقة وأضيفت اليها مواد جديدة • وأطلق على المعاهدة الجديدة اسم « المعاهدة النهائية للامتيازات الامبراطورية العثمانية وانجلترا «Final Treaty of Capitualations btween the Ottoman Empire and England وهى تقع فى خمس وسبعين مادة ،[٦٦] وتمثل هذه المعاهدة المرحلة الثانية المهمة فى تاريخ الامتيازات التجارية البريطانية فى الدولة العثمانية التى ضمنت للتاجر الانجليزى حرية التجارة داخــل البلاد العثمانية ، والسماح له بمرور بضائعه عبرها ، والتمتع بما يكفــى حماية نفسه وماله • وقد ضمنت الامتيازات اسميا مثل ذلك للتاجر العثمانى

(٦٦) Hurewitz, J. C.: Op. Cit I., pp. 25 à 32.

فى البلاد الانجليزية . غير أن الجانب العثمانى لم يستند فى الواقع سوى ما يأخذه السلطان أو الباشوات من رسوم على البضائع الانجليزية تبلغ عادة ثلاثة فى المائة من ثمن البضاعة .[٦٧] ولم يحدث بعد عقد معاهدة عام ١٦٧٥ شيء يذكر حتى عام ١٨٠٩ حين نجحت انجلترا فى استمالة الدولة العثمانية اليها بعد فترة جفاء بينهما ، كما استطاعت انجلترا فى اليوم الخامس من شهر يناير سنة ١٨٠٩ أن تعقد مع الدولة العثمانية معاهدة الدردنيل المعروفة باسم « معاهدة السلام والتجارة والتحالف السرى «Treaty of Peace, Commerce and Seecret Alliance» . وقد جاء فى مادتها الرابعة أن جميع الامتيازات التى سبق تقريرها فى معاهدة عام ١٦٧٥ والمعاهدات السابقة عليها تظل ملحوظة ومرعية كان لم يطرأ عليها تعطيل . وقد عقدت الدولة العثمانية تباعا معاهدات أخرى على شاكلتها مع عدد من الدول الاوربية الاخرى [٦٨] .

واذا كانت انجلترا قد حرصت على مشاركة البنادقة والجنويين والفرنسيين وغيرهم فى التجارة التى تصل الى موانى البحر المتوسط فى القرن السادس عشر ، ونجحت فى ذلك الى حد بعيد بعد تأسيسها لشركة الليفانت على وجه الخصوص عام ١٥٨١ ، فانه لم يكد هذا القرن يوشك على الانتهاء حتى أصبحت التجارة التى تصل الى موانى ذلك البحر لاتفى بحاجة السوق الانجليزية من البضائع والمنتجات الشرقية [٦٩] ولهذا اتجه البريطانيون الى كسر احتكار البرتغاليين والهولنديين للتجارة الشرقية فى

---

(٦٧) زكى صالح (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٦ .
(٦٨) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج٢ ، ص ٧١٥—٧١٩ .
(٦٩) Hoskins, H. L. : British Routes to India, pp. 1,3.

بحار الشرق فتحولت السفن البريطانية كذلك الى طريق رأس الرجاء الصالح ونفذت الى البحار الشرقية وتم اتصالها المباشر بالهند • وكان لانجلترا الدور الكبير فى تنشيط طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن السادس عشر وفى أعقابه ، بالاضافة الى نشاطها التجارى فى البحر المتوسط ، وزاد ثقل بريطانيا فى المحيط الهندى بشكل ملحوظ بعد تأسيسها « لشركة الهند الشرقية الانجليزية The East India Company » فى ٣١ ديسمبر عام ١٦٠٠ [٧٠] • وعلى الرغم من ذلك فقد بدت رغبة انجلترا واضحة فى استخدام الطريق التقليدى القديم عبر مصر والبحر المتوسط بعد أن تبينت مميزاته فى نهاية القرن الثامن عشر وخاصة عند تسيير الخط الملاحى البحرى البخارى فى مطلع القرن التاسع عشر [٧١] •

وهكذا نشطت الدبلوماسية المملوكية ثم العثمانية من جهة ، والدبلوماسية الاوربية وخاصة لدى الدول ذات المصالح التجارية فى البحر المتوسط من جهة أخرى كالبندقية وفرنسا وانجلترا ، خلال القرن السادس عشر وفى أعقابه ، لعقد المعاهدات التجارية لتنشيط الحركة التجارية فى البحر المتوسط — على النحو الذى أوضحناه — بعد أن أضعفها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدى البرتغاليين فى مطلع القرن المذكور •

(ثالثا) الاثر الاستراتيجى لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر :

كان لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية

---

(٧٠) Fisher, H. A. L. : op., Cit., p. 602.

(٧١) Hoskins, H. L.: The Growth of British Interests in the Route to India, Jowrnal of Indian History, II, p. 167.

القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين على أيـدى البرتغاليين أبرز الاثر من الناحية الاستراتيجية على مصر وعالم البحـر المتوسط بعد أن حرما من هذه التجارة • ورغم الجهود الدبلوماسية التى بذلت من الاطراف المعنية المختلفة على النحو الذى عالجناه فيما سبق ، فانها لم تحقق الاهداف المرجوة منها من أجل العودة الى الطريق التقليدى عبر مصر وعالم البحر المتوسط • وقد استوجب هذا على أهالى البـلاد الاصليين من جهة أولى ، وعلى المماليك من جهة ثانية ، ثم على العثمانيين من جهة ثالثة ، ضرورة اللجوء الى استخدام القوة ضد النشاط البرتغـالى والنشاط الاسبانى المواكب له فى العداء للمسلمين سواء فى البحر المتوسط من جهة أو فى البحار الشرقية من جهة أخـرى • ولهـذا فان النشـاط الاستراتيجى سيبدو واضحا فى هذين النطاقين وسوف يستمر من الناحية الزمنية طوال القرن السادس عشر الميلادى • وسوف يكون للاتـراك العثمانيين الفضل فى تشكيل تغطية استراتيجية للحفاظ على أمن العـالم الاسلامى فى مصر وعالم البحر المتوسط من جهة ؛ وعالم البحر الاحمـر من جهة أخرى طوال القرن السادس عشر ، حتى أفل نجم البرتغاليين فى البحار الشرقية فى نهاية القـرن المذكور • وقد جـاءت هـذه التغطيـة الاستراتيجية العثمانية للمنطقة المذكورة فى وقت كانت تتعرض فيه لفراغ سياسى نتيجة لانقسام الصف المملوكى من جهة أولى ، وفشل المماليك فى صد الغزو البرتغالى للبحار الشرقية من جهة ثانية ، هذا فضلا عن انهيار الاوضاع الاقتصادية من جهة ثالثة • ويعد هذا الدور اكبر مكرمة للعثمانيين فى جوهر علاقاتهم بأشقائهم المسلمين فى عالى البحرين المتوسط والاحمر فى القرن السادس عشر •

الاثر الاستراتيجى فى البحر المتوسط :

ففيما يتعلق بالاثر الاستراتيجى فى البحر المتوسط فاننا نجد أن المغرب المغرب العربى قد تعرض فى أثناء القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين للهجمات الاسبانية المستمرة على سواحله والتى كانت تواكب النشاط البرتغالى الذى حول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح آنذاك • اذ كانت خطة آسبانيا بعد أن تخلصت من آخر دولة اسلامية فيها وهى دولة بنى الاحمر فى غرناطة فى سنة ١٤٩٢ ، تقوم على غزو بلاد المغرب العربى ، هادفة بذلك الى تعقب المسلمين الذين هاجروا الى الموانى المغربية ، نظرا للدور الفعال الذى قاموا به فى تنشيط حركة الجهاد فى غربى البحر المتوسط وتنهم الغارات المستمرة على سواحل أسبانيا ، محاولين اثارة بقايا المسلمين هناك • وقد بدأت أسبانيا منذ عام (٩١١هـ — ١٥٠٥م) بانزال حملاتها على سواحل المغرب الاوسط ، وبخاصة ميناء « المرسى الكبير » فى غرب الجزائر ، ثم أخذ نطاق العمليات الاسبانية يتسع منذ عام ١٥٠٨ حين تولى قيادة الاساطيل الاسبانية « بدور نافارا Pedro Navarra الذى تمكن من الاستيلاء على «حجر باديس» [٧٢] • ووهران وبجاية [٧٣] عام (٩١٥هـ — ١٥٠٩م) ، كما تمكن من تدمير ميناء طرابلس فى السنة التالية • وتحت هذا الضغط الاسبانى اضطرت

(٧٢) حجر باديس أو صخرة باديس وتقع فى اقصى غرب الساحل الجزائرى المطل على البحر المتوسط .

(٧٣) بجاية : مدينة ساحلية جزائرية تطل على البحر المتوسط وتقع فى شرق الجزائر العاصمة وتبعد عنها بحوالى ٢٥٠ كيلو متر ، وكانت مركزا ثقافيا هاما فى العصور الوسطى .

دلس [٧٤] والجزائر الى دفع جزية لاسبانيا لان الزيانيين (٧٥) اثبتوا عجزهم عن حماية هذه الموانى نتيجة للتفكك السياسى الذى اصاب دولتهم، وللثورات الداخلية التى نشبت ضدهم كرد فعل على كثرة الضرائب التى فرضوها فى تلك الفترة على الاهالى بحجة مواجهة الغزو الخارجى ، مما اثر تأثيرا سيئا على الوضع الداخلى ، واضطرت السلطات الزيانية ذاتها الى عقد صلح مع اسبانيا فى سنة ١٥١٢م ، اعترفوا فيه باستيلاء اسبانيا على عدة موانى فى غرب الجزائر [٧٦] .

على ان حركة الجهاد البحرى للمغاربة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط اشتد ساعدها من جديد فى العقد الثانى من القرن السادس عشر ولمعت قيادات جديدة من بين رؤساء البحر ، اصبح لها فى تلك الفترة تأثيرها الواضح فى بلاد المغرب العربى من امثال بابا عروج واخيه خير الدين بارباروسا ، وكانا من البحارة العثمانيين الذين شاركوا فى عمليات الجهاد البحرى ضد المحاولات الاسبانية العدوانية ، وكونوا قوة اسلامية جديدة كانت تمثل الخيط الاول فى علاقات العثمانيين بالمغرب العربى، تلك العلاقات التى كانت تهدف الى انقاذ مسلمى الاندلس من اضطهاد الكاثوليك المتعصبين ، وحماية سواحل المغرب العربى من الغزو الاسبانى . وقد تعددت خيوط علاقات العثمانيين بالمغرب العربى مع تحول هذه القوة الى باشوية سياسية

---

(٧٤) ميناء دلس الجزائرى يقع على بعد ٨٠ كيلو متر شرقى ميناء الجزائر.

(٧٥) الزيانيون : نسبة الى الدولة الزيانية التى ظهرت فى القرن الثالث عشر بعد ضعف دولة الموحدين وكانت عاصمتها تلمسان ، وكانت فى صراع دائم مع الدولة الحفصية فى تونس والدولة المرينية فى المغرب الاقصى ، ودخلت تحت سيطرة العثمانيين فى عام ١٥١٧م .

(٧٦) شوقى عطاالله الجمل (دكتور) : المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث : ص ٢٦—٣٥ .

فى الجزائر ناهضت المعاقل الاسبانية على السواحل الجزائرية والتونسية والليبية ووصلت بحكمها فى اتجاه المغرب الى تلمسان ، ووجده ، ودبذو ، وبادس [٧٧] .

وقد تمكن عروج بالتعاون مع اخيه خير الدين ، من تكوين امـارة مستقلة فى جزيرة جربة [٧٨] ، واتخذاها قاعدة بحرية لنشاطهما منذ عـام ١٥٠٤م ، وجمعا فيها الكثير من المتطوعين . وبدأ عروج منذ سنة ١٥١٠ فى ممارسة نشاطه البحرى من هذه القاعدة . وذاعت شهرته فى الجهاد ضد غارات الاسبان ، حتى ان رجال القبائل فى الجزائر طلبوا منه تقديم العون لهم لاسترداد ميناء بجاية من يد الاسبان ، فاجابهم الى طلبهم ونجح فى استرداد هذا الميناء ،ثم نقل قاعدة نشاطه من جزيرة جربة الى ميناء جيجل فى الجزائر ، وتمكن من صدهجوم اسبانى على ميناء الجزائر وهدد الحصون التى اقامها الاسبان امام الساحل وشدد هجماته عليها ، وتمكن من بسط نفوده على اقاليم المغرب الاوسط ، الاقليم تلو الاخر . وأصيبت السلطات القديمة بالضعف أمام سلطان عروج ، ونجح فى سنة ١٥١٧ فى مد نفوذه على « تلمسان » عاصمة بنى زيان . وقام عروج بعد أن نجح فى القضاء على حكم بنى زيان ،بوضع حاميات فى ميديا ومليانة [٧٩] ، وامتد نفوذه الى حدود المغرب الاقصى . ولكن آخر حكام بنى زيان ، استنجد بأسبانيا لاسترداد عرشه الضائع ووجد الاسبان فى هذا الاستنجاد فرصة لهـم

---

(٧٧) ابراهيم شحاته حسن (دكتور) اطوار العلاقات المغربية العثمانية، قراءة فى تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (١٥١٠-١٩٤٧م) ، ص ١١٩ .

(٧٨) تقع جزيرة جربة فى مواجهة ساحل تونس من ناحية الجنوب الشرقى المطل على البحر المتوسط وهى من اشهر المواقع السياحية التونسية حاليا لموقعها الجغرافى الممتاز ، بينما تقع مدينة جيجل على ساحل الجزائر شرقى مدينة الجزائر بحوالى ٣٥٠ كيلومتر .

(٧٩) تقع ميديا جنوب مدينة الجزائر بحوالى ٨٨ كيلو متر ، بينما تقـع مليانه غرب مدينة الجزائر بحوالى ١٣٠ كيلو متر .

للتدخل فى شئون الجزائر ، ووصلت حملة أسبانية الى سواحل الجزائر وتمكنت من التوغل فى أرض الجزائر ومحاصرة تلمسان وأحدثت فوضى فى داخلية البلاد أدت الى نشوب ثورة ضد حكم بابا عروج ، بل أن الامــر انتهى بقتله سنة ١٥١٨ (٨٠) • وقد أثارت أعمال اسبانيا العدوانية ضد البلدان المغربية أبناء المغرب المقيمين بالاسكندرية آنذاك ، فقاموا بعمل عدائى ضد الاسبان المقيمين فيها ، وأحرقوا لهم خانا (٨١) •

ولهذا لم يكن امام خير الدين بار باروستيا ، الذى خلف أخاه عروج ، من سبيل للسيطرة على الموقف ، سوى الاتصال بالدولة العثمانية ، التى غدت القوة الاسلامية الكبرى المسيطرة على مصر والشام والحجاز فى سنة ١٥١٧، فطلب خير الدين من السلطان سليم الاول مديد العون له فى جهاده ضد الخطر الاسبانى (٨٢) • وقد أرسل له السلطان سليم فى سنة ١٥١٨ ، ألفين من الجنود الانكشارية ، كما سمح له بتجنيد أبناء الاناضول • ويعتبر هذا الاتصال بين خير الدين والدولة العثمانية بداية انضمام المغرب الاوسط الى الدولة العثمانية • وقد أزعج هذا التقارب ، القيادات المغربية القديمة، التى كانت قائمة فى المناطق المغربية الاخرى ، خشية أن يقضى على ماتبقى لها من نفوذ وسلطان ، مما ضاعف من جهود خير الدين ، فكان عليه أن يواجه الخطر الاسبانى من ناحية ، وأن يتصدى للقوى الداخلية المعارضة مــن ناحية أخرى • خاصة وأن هذه القوى حاولت أن توحد جهودها مع جهــود الاسبان للقضـــاء على قوة خير الدين ، الذى نجح فى مجابهة هذه الاخطار

---

(٨٠) جلال يحيى (دكتور) : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجــوم الاستعمار ص ٢٢ــ٢٣ •

(٨١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور): المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص١٨ •

(٨٢) صلاح العقاد (دكتور) : المغرب العربى ، دراسة فى تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة • ص ٩ــ١٥ •

ووحد اقطار شمال افريقية ، وأصبحت دولته بمثابة خط الدفاع الامـامى للدولة العثمانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط [٨٣] • وقد منحـه السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ — ١٥٦٦م) لقب «بيلر باى افريقية» Beylerbey ثم من بعد لقب « قبودان باشا Kapudan Pasa

وقد ازداد نفوذ الدولة العثمانية قوة فى بلاد المغرب ، بعد أن تمكن مراد أغا فى (١٣ شعبان ٩٥٨هـ — ١٦ اغسطس ١٥٥١ م) منتخليص طرابلس الغرب من يد الاسبان ، وفرسان القديس يوحنا ، وأصبحت طرابلس قاعدة من قواعد الجهاد البحرى فى شمال افريقيا [٨٤] •

تلك هى الصورة السياسية التى كان يمر بها المغرب الاسلامى والتى رجحت فيها كفة أسبانيا بعد احرازها النصر على المسلمين فى المغرب فى معركة « ليبانتو » فى سنة ١٥٧١م • حيث عجزوا بعد هذه المعركة عن مد نفوذهم فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، كما عجزوا عن تحرير الجيوب التى احتلتها أسبانيا والبرتغال على سواحل اقليم المغرب الاقصى [٨٥] • بل ان وهران فى المغرب الاوسط بقيت تحت الحكم الاسبانى حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر • وقد حاولت أسبانيا بعد معركة « ليبـانتو » بعامين احتلال تونس واعادة حلفائها الحفصيين • غير أن المسلمين بقيادة « العلج على » تمكنوا فى العام التالى من اخراج الاسبان وحلفائهـم الحفصيين وبصورة نهائية من تونس فى سنة ١٥٧٤ • وقد ظلت حالة عـدم الاستقرار هذه تسود المغرب الاسلامى طوال القرن السادس عشر ، وحتى الاقاليم التى خضعت للحكم العثمانى عانت كثيرا من النظم الادارية التى

---

(٨٣) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ص ١١٣
(٨٤) صلاح العقاد (دكتور) : المغرب العربى : ص ١٩—٢٥ •
(٨٥) جلال يحيى (دكتور) المرجع السابق ، ص٢٣—٢٦ •

خضعت لها مما أحدث إرتباكا فى أحوالها (٨٦) •

ولاشك أن هذه الظروف التى كانت تمر بها بلدان المغرب الاسلامى أثرت على وضعية اقتصاد البلاد مما جعل الكثيرين من فئة التجار يتجهون الى بلدان المشرق العربى ويستقرون فيها لممارسة نشاطهم • وكذلك فعل الحرفيون وبعض القبائل المغربية فأصبحت هذه الظروف بمثابة عامل طرد من المغرب الى المشرق ، قابلة من الجانب الاخر عامل تمثل فى أقطار المشرق وبخاصة مصر التى وفرت لهؤلاء المهاجرين والوافدين اليها من المغاربة الحرية التامة لممارسة نشاطاتهم المختلفة سواء أكانت تجارية أم مهنية، فاتخذوها موطنا لهم ، واستقروا فى مدنها وقراها (٨٧) • وكان ذلك يحدث قبل نهاية العصر المملوكى فى سنة ١٥١٧ ، وطوال العصر العثمانى وخاصة فى القرن السادس عشر ، ذلك لان الوجود العثمانى البحرى فى سواحل المغرب العربى المطلة على البحر المتوسط قد سبق الوجود العثمانى فى المشرق العربى ومصر ، (٨٨) مما جعل المغاربة يشعرون بوحدة بلادهم مع بلاد المشرق العربى فى ظل الحكم العثمانى •

وبالاطلاع على أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية والذى يضم وثائق محكمة الاسكندرية الشرعية العائدة الى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى نتبين وجود العديد من الوثائق التى تشير الى دور المغاربة فى تنشيط الحركة التجارية والحرفية ، فضلا عن الحياة

---

(٨٦) عبد الجليل التميمى (دكتور) الخلفية الدينية للصراع الاسبانى — العثمانى على الايالات المغربية فى القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ؛ عدد (١٠—١١) ؛ ص٥—٤٤ ؛ تونس يناير ١٩٧٨ .

(٨٧) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ص ١٩ .

(٨٨) ابراهيم شحاتة حسن (دكتور) : اطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٣٨ .

الاجتماعية والثقافية فى الموانى والمدن الداخلية فى مصر والشام وخاصة فى مدينة الاسكندرية [٨٩] كما تشير هذه الوثائق كذلك الى وجود نشاط تجارى نسبى كانت تقوم به الجاليات الاوربية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط فى الموانى والمدن الداخلية فى مصر والشام وخاصة فى مدينة الاسكندرية آنذاك [٩٠] . وقد خفف هذا النشاط التجارى الى حد كبير من حدة العزلة التى أحدثها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح عن مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر . مما يؤكد أن الحركة التجارية لم تتوقف تماما ، بل انها نشطت نسبيا استنادا الى الطرق البرية الاخرى التى نشطت لتعوض المنطقة عما افتقدته ، والتى كانت رحلة الحج السنوية تشكل محورا لحركتها الدائبة .

ـ الاثر الاستراتيجى فى البحار الشرقية :

كان لتحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط الى طريق رأس الرجاء الصالح منذ وصول البرتغاليين الى الهند فى نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر الميلاديين ، أبلغ الاثر من الناحية الاستراتيجية على البحار الشرقية بوجه عام ، وعلى البحر الاحمر بوجه

---

(٨٩) أنظر المجموعة الوثائقية الاولى الملحقة بالبحث وعددها ثلاث عشرة وثيقة ، أصولها محفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية وتخص محكمة الاسكندرية الشرعية بدفتر سجل مبايعات رقم(١) وتعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ ــ ١٥٥٠م) الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ ــ ١٥٥١م) ، ولم يسبق نشرها .

(٩٠) أنظر المجموعة الوثائقية الثانية الملحقة بالبحث وعددها سبع وثائق ، اصولها محفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية وتخص محكمة الاسكندرية الشرعية بدفتر سجل مبايعات رقم (١) وتعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ ــ ١٥٥٠م) الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ ــ ١٥٥١م) ، ولم يسبق نشرها .

خاص • وكانت دولة المماليك تشكل أكبر قوة اسلامية متواجدة فى هذا البحر بحكم سيطرتها على مصر والحجاز فى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة • كما كانت من أكثر الدول تأثرا بأية متغيرات تحدث فى هذا البحر ، كتحول التجارة العالمية عنه الى طريق رأس الرجاء الصالح، مما أدى الى ضياع العوائد والرسوم الجمركية الضخمة التى كانت تجنيها الخزانة المملوكية فى الموانى التابعة لها والمطلة على البحر المذكور • ولهذا كان على الدولة المملوكية — للاعتبارات الامنية والاقتصادية — أن تتصدى للبرتغاليين فى البحار الشرقية عامة ، والبحر الاحمر بوجه خاص ، للقضاء على تلك المنافسة البرتغالية الخطيرة ، خاصة بعد أن عجز الطاهريون فى سواحل اليمن — التى شكلت خط المواجهة الاول مع البرتغاليين فى أقصى جنوب الجزيرة العربية والبحر الاحمر — من جهة ، وكذلك السلطنات الاسلامية على الساحل الغربى للهند من جهة أخرى ، عن مواجهة الخطر البرتغالى المتزايد فى المحيط الهندى •

اذ استنجد الامراء الهنود على الساحل الغربى للهند أمثال سلطان « كجرات » والسامرى حاكم « قاليقوط » بالسلطان الغورى ليساعدهم فى مواجهة الخطر البرتغالى بعد أن عجزوا عن مواجهته ، باعتبار دولته أقوى الممالك الاسلامية ذات المصالح الاقتصادية المباشرة فى الهند ، فضلا عن امتلاكها للاسلحة النارية الحديثة المماثلة للاسلحة البرتغالية (٩١) •

أما بالنسبة للطاهريين الذن كانوا يحكمون الجزء الساحلى من اليمن والذين كانوا يشكلون مع الامامة الزيدية المتمركزة فى الهضبة اليمنية ، الدعامتين اللتين قام عليهما النظام السياسى فى اليمن فى نهاية القرن الخامس عشر ،

---

(٩١) قطب الدين النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، مخطوطة ص ٤ (أ) .

فقد واجهوا البرتغاليين الذين أضعفوا الامكانات الاقتصادية لتهامه وجنوبى اليمن بعد تحويلهم للتجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح • وقد أكدوا بذلك الموقف الايجابى للشعب اليمنى فى تصديهم للبرتغاليين بقدر ما كانت تسمح به امكاناتهم الذاتية فى ذلك الحين • اذ استطاع السلطان عامر بن داود الطاهرى — رغم اضطراب أحوال سلطنته نتيجة للجهود التى بذلها من أجل توحيد اليمن تحت حكمة ، الى جانب ضعف ايراداته المالية نتيجة للحصار البرتغالى الذى حول طريق التجارة عن بلاده وأفقده الاموال الطائله التى كانت تصل اليه من جمارك عدن قبل وصول البرتغاليين الى الهند [٩٢] • أن يجهز حملة بحرية لمحاربة البرتغاليين فى مياه الهند فى سنة ١٥٠٧م ، غير أن هذه الحملة كانت ضعيفة تعبر عن حقيقة ظروف السلطان عامر وامكاناته ، كما تعبر أيضا عن عدم ادراكه لقوة الغازى الجديد الذى جاء يغزو الشرق كله بأسلحة حديثة فتاكة • اذ كان قوام الحملة أربع عشرة سفينة من سفن النقل العادية ، تحمل ستمائة مقاتل يمنى بالاضافة الى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين • وأبحرت هذه الحملة من ميناء عدن فى ١١ مارس سنة ١٥٠٧ ، ولم تكن سوى فريسة سهلة للبرتغاليين على نحو ما يرجحه ، نظرا لان المصادر اليمنية صمتت حينذاك عن ذكر أنباء تلك الحملة ، التى كانت أضعف كثيرا عن القيام بمهمتها الصعبة [٩٣] ولهذا فان السلطان عامر عجز عن ارسال حملة أخرى الى الهند فضلا عن حماية سواحله أمام هجمات البرتغاليين بين آونة وأخرى •

---

(٩٢) ابن الدبيع ، عبد الرحمن بن على محمد الشيبانى الزبيدى الشافعى: الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ، ص ٣١ب، ٤٢ ب •

(٩٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الاول لليمن ١٥٣٨ — ١٦٣٥م : ص٥٨ — ٥٩ •

وفى ذلك الوقت كانت دولة المماليك فى مصر والشام والحجاز من أولى الدول التى تأثرت اقتصاديا بتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح اذ أدى هذا التحول الى ضياع العوائد والرسوم الضخمة التى كانت تجنيها الخزانة المملوكية من موانى مصر والشام والحجاز • وقد أبدى المماليك اهتماما بالغا بمحاربة البرتغاليين ووقف تحول التجارة اليهم • غير أنهم كانوا أضعف من مواجهة قوة دولة البرتغال البحرية الناشـــئة وأعجز عن القضاء عليها • ولهذا فقد استعان المماليك بالعثمانيين المسلمين الذين شاركوهم غيرتهم الدينية ، (٩٤) وبالبندقية التى حرمت مثلهم من التجارة الشرقية التى كانت تقوم بتوزيعها فى أسواق أوربا ، وذلك للقضاء على تلك المنافسة البرتغالية الخطيرة • وكان بعض أمراء الهند أمثـــــان سلطان كجرات والسامرى حاكم قاليقوط (٩٥) قد استجدوا بالسلطان الغورى ليساعدهم فى مواجهة الخطر البرتغالى باعتبار دولته أقوى المـــــاليك الاسلامية ذات المصالح الاقتصادية المباشرة فى الهند ، فضلا عن امتلاكها للاسلحة النارية الحديثة المماثلة للاسلحة البرتغالية (٩٦) كما أرسلت البندقية سفيرها « فرانسوا تالدى » الى القاهرة للتفاوض مع السلطان الغورى سرا فى الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسع البرتغاليين التجارى فى مياه الهند وذلك بناء على تعليمات مجلس العشرة الصادرة فى البندقية فى ٢٤ مايو

---

(٩٤) الموزعى • شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد : « كتاب الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان » مخطوطة ، ص٦ •

(٩٥) المليبارى ، زين الدين المعبرى : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين • ص ٤٠ •

(٩٦) قطب الدين النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، مخطوطة ص ٤ (أ) •

سنة ١٥٠٤ [٩٧] وقد أدى ذلك أيضا الى تشجيع السلطان الغورى على ارسال حملة بحرية الى الهند لتعقب البرتغاليين ومحاولة طردهم من البحار الشرقية واعادة التجارة الى طريقها التقليدى القديم عبر مصر والشام والبحر المتوسط • وقد حدث ذلك عندما وجه السلطان الغورى حملة بحرية يقودها الامير حسين الكردى نائب جدة تحركت من القاهرة فى ٤ نوفمبر سنة ١٥٠٥ عبر قناة أوصلتها الى السويس حيث أبحرت منها متجهة الى المحيط الهندى • وقد مرت الحملة بسواكن حيث استولت عليها وأقامت بها بعض الاستحكامات ضمن برنامجها لتحصين سواحل البحر الاحمر قبل أن تتجه الى الهند • ثم أبحرت الحملة تجاه الموانى اليمنية فمرت بجيزان ثم بقمران ، واتجهت منها الى مخا ثم وصلت الى عدن حيث مكثت هناك لتتزود بالمؤن اللازمة لها للقيام بمهمتها •

وقام الامير حسين الكردى بابلاغ والى عدن من قبل الطاهريـــين أن هدف الحملة هو التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين • كما طلب منه أن يمد الجملة بالطعام والمؤن اللازمة ، فسمح له الوالى بأن يأخذ من عدن كل ما يحتاج اليه [٩٨] • وهذا يؤكد مرة ثانية أن اليمنيين وقفوا موقفا ايجابيا فى مواجهة البرتغاليين على نحو ما بدا فى تعاونهم الكامل مع القوات المملوكية المتجهة لمحاربتهم •

---

(٩٧) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٣٨١—٨٣٧ • وقد نشر فى ملاحق كتابه مجموعة التعليمات التى اصدرها مجلس العشرة فى البندقيه للسفير البندقى « فرانسوا تالدى » المبعوث الى السلطان الغورى بالقاهرة فى ٢٤ مايو سنة ١٥٠٤ ، ونصوص بعض النظم التجارية الخاصة بتجارة البندقية فى الاسكندرية ، حتى عقد المعاهدة بين السلطان سليم الاول العثمانى وطائفة البنادقة فى ثغر الاسكندرية بعد فتح العثمانيين لمصر بتاريخ ٢٢ من المحرم ٩٢٣هـ —٢١ من فبراير سنة ١٥١٧ ، ص ٤٢٩ — ٤٣٥ .

(٩٨) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص٨٥ •

وكانت الانتصارات الحربية والتجارية المتواصلة للبرتغاليين حينذاك قد دفعتهم الى اتخاذ خطوة اكثر ايجابية وهى اقامة حكومة استعمارية برتغالية فى الهند فقد عين ملكهم فى سنة ١٥٠٥ « فرانسيسكودا الميدا «Francisco d'Almeida» حاكما عاما للبرتغاليين فى الهند كنائب لملك البرتغال [٩٩] . وعمل « دالميدا » طوال أربع سنوات حتى سنة ١٥٠٩ على اقامة دعائم الحكم الاستعمارى البرتغالى فى ساحل ملبار ، وتوجيه الحملات الحربية الى الجهات المختلفة لفتح مجالات التجارة أمام البرتغاليين فى البحار الشرقية [١٠٠] .

وعندما وصلت الحملة المملوكية الى مياه الهند ، تمكنت من احراز نصر جزئى أمام الاسطول البرتغالى بعد وقت قليل من وصوله الى «ديو Diu» التى كانت أهم موانى سلطنة « كجرات » . كما انتصر الاسطول المملوكى على اسطول برتغالى مكون من ثمانى سفن [١٠١] . وذلك فى خريف عام ١٥٠٨ م . وكان سلطان كجرات يتعاون حينذاك مع المماليك . غير أن البرتغاليين سارعوا بقيادة «دا الميدا» نائب ملك البرتغال فى الهند وهاجموا السفن المملوكية ، وأحرزوا نصرا حاسما على المماليك فى موقعة «ديو» [١٠٢] فى اليوم الثانى من فبراير سنة ١٥٠٩م . [١٠٣] وقد تمكن البرتغاليون عقب هذا الانتصار من التسلط على البحار الشرقية لمدة قرن من الزمان على وجه التقريب ، رغم الجهود التى بذلها أهالى البلاد الاصليين من جهة، والمماليك والعثمانيون من جهة أخرى لطردهم من هذه البحار .

---

(٩٩) Stephens, H. M. Portugal, p. 195.

(١٠٠) Kammerer, A.: Op. Cit., Tome I. 155.

(١٠١) سعاد ماهر (دكتورة) : البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية، ص ١٣٢ .

(١٠٢) ابن اياس : المصدر السابق ،ج٢ ، ص١٩٦ .

(١٠٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دولة البحار ج٢،ص٢٦ .

وتجدر الاشارة الى السياسة التى اتبعها البرتغاليون لبسط نفوذهم فى البحار الشرقية من جهة ، واحتكار التجارة الشرقية من جهة أخرى . فقد كان « دا الميدا » يتبع سياسة الاكتفاء بسيطرة البرتغاليين على البحار دون التوسع فى الاستيلاء على المواقع البرية التى يمكن أن تكلفهم مالا يطيقونه ، مما جعله يتجه الى تقوية الاسطول البرتغالى (١٠٤) . لاحكام سيطرتهم على البحار . وعندما عين « ألفونسو البوكيرك Albuquerque» نائبا للملك البرتغال فى الهند بدلا من « دا الميدا » عمل على احتلال المراكز البحرية الهامة واقامة الحصون القوية فى جميع جهات المحيط الهندى لاحكام سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة ، وتدعيم مركزهم فى تلك المناطق النائية عن البرتغال ، حتى يأمنوا آية ضربات من قبل الحكام الوطنيين ويضعوا حدا لها (١٠٥) .

وقد تمكن « البوكيرك » من السيطرة على البوابات البحرية الثلاث الموصلة للمحيط الهندى وهى مضايق هرمز ، وباب المندب ، وملقا الواقع عند الطرف الجنوبى لشبة جزيرة الملايو (١٠٦) . وكان يحرص حينذاك على أن يثبت للهنود عدم وجود أية قوة يمكنهم أن ينتظروا مجيئها الى الهند لانقاذهم . كما كان البرتغاليون قد وجهوا أسطولا مكونا من أربعين سفينة بقيادة « البوكيرك » وزميله « ترستودى كانها Tresto de Canha» لبسط نفوذهم على الساحل الشرقى لافريقيا فى سنة ١٥٠٦ . وقد استولى هذا الاسطول على لامو و براوا ولم تأت سنة ١٥٠٩ الا وكانت جميع المراكز الاسلامية على هذا الساحل من « سوفالا » جنوبا الى « بـراوا » شمالا

---

(١٠٤) Kammerer, A.: Op Cit., p. 156.

(١٠٥) Wilson, A. Op. Cit., p. 112.

(١٠٦) Prestage, E. : The Portuguese Pioneers, pp. 53, 60.

قد خضعت للبرتغاليين • (١٠٧) كما تمكن « البوكيرك » فى سنة ١٥٠٧ من السيطرة على جزيرة « سقطرى » المواجهة للساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية وتتوسط المسافة تقريبا بين مدخلى البحر الاحمر والخليج العربى (١٠٨) • وكان موقع الجزيرة نموذجيا بالنسبة لتحقيق أهداف البرتغاليين مما جعل « البوكيرك » يقرر ابقاء حامية فيها مع تشييد حصن برتغالى ، فضلا عن اقامة دير لطائفة الفرنسسكان لنشر الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى (١٠٩) • غير أن البرتغاليين غادروا الجزيرة فى سنة ١٥١١ نظرا لعدم توفر مقومات الاستقرار فها ، مما أدى الى ضعف استفادتهم منها حربيا وتجاريا •

وفى عهد « البوكيرك » تم أول اتصال مباشر بين الحبشة والبرتغال فى سنة ١٥٠٩ • وقد أجبرت الحبشة حينذاك على التعاون مع البرتغاليين لاعلان الحرب العامة على المسلمين وعلى الدولة المملوكية التى كانت تتزعمهم بوجه خاص • وقد سعى البرتغاليون الى عقد تحالف مع الحبشة المسيحية لتطويق العالم الاسلامى من الجنوب وتوفير مراكز بحرية لهم فى داخل البحر الاحمر لمهاجمة الحجاز ومصر واليمن فى ذلك الحين (١١٠) وكان يهدف « البوكيرك » الى السيطرة على عدن التى كانت تعتبر أكبر مستودع تجارى فى جنوبى البحر الاحمر ، وذلك لكى يتمكن من الاستفادة من موقعها الممتاز المتحكم فى مضيق باب المندب لاغلاق البحر الاحمر ، وتأمين طريق البرتغال الجديد حول رأس الرجاء الصالح • ولهذا قام

---

(١٠٧) Serjeant, R. B.: Op. Cit., p. 14.

(١٠٨) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٤ •

(١٠٩) Serjeant, R. B. : Op. Cit., p. 43.

(١١٠) Alvarez, F. : Op. Cit., pp. 390, 392.

« البوكيرك » بمهاجمة عدن فى ٢٤ مارس سنة ١٥١٣ ثم نقل معاركه البحرية بعد ذلك الى داخل البحر الاحمر •

وكان يحكم عدن من قبل الطاهريين الامير مـرجان الذى اضطرب لظهور البرتغاليين وسارع بطلب النجدةمن ا لسلطان عامر بن عبد الوهاب سلطان الدولة الطاهرية بجنوبى اليمن • ونظرا لانشغال هذا السلطان بحروبه مع الامام الزيدى للسيطرة على صنعاء ، فقد تأخر فى ارســال النجدة لحاكم عدن • وقد اعتمد أهالى عدن على أنفسهم وعلى حصانة مدينتهم الطبيعية فى صد العدوان البرتغالى واستبسلوا فى دفاعهم ، حتى اضطر البرتغاليون الى الانسحاب الى سفنهم بعد أن تركوا خلفهم بعض قتلاهم • وقد انتقم البرتغاليون لانفسهم بالقيام بأعمال تخريبية فأحرقوا حوالى أربعين سفينة كانت راسية بميناء عدن بعدأن استولوا على ماتحمله من بضائع (١١١) • بل انهم اتجهوا بعد ذلك الى مضيق باب المندب حيث نفذوا الى داخل البحر الاحمر وقد مروا بالموانى اليمنية المطلة على البحر الاحمر حتى وصلوا الى جزيرة قمران الواقعة أمام ميناء الصليف شمالى الحديدة• وقد استولوا على الجزيرة فى مطلع شهر أبريل سنة ١٥١٣ ، وقاموا بأعمال تخريبية مثل ردم الابار حتى لا تنتفع بالجزيرة أيه قوة معادية ، خاصـة وأنها كانت محطة بحرية هامة بين موانى اليمن والحجاز (١١٢) •

وقد اتجه « البوكيرك » بعد ذلك نحو تنفيذ مشروعة الحربى الكبير بمهاجمة جدة • غير أن الرياح بددت أحلامه واضطرته للعودة الى قمران حيث بقى فيها مدة شهرين واصل أثناءها أعماله التخريبية فى موانى البحر الاحمر • فضرب ميناء زيلع بالمدافع وأحرق السفن الراسية هناك • ثم

---

(١١١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى اخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ص ٥٠ (ب) ، ٥١ (أ) •

(١١٢) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٧٢ — ٧٤ •

عاد ثانية الى عدن وواصل ضربها بالمدافع مدة خمسة عشر يوما حتى غادرها الى الهند فى اليوم الرابع من أغسطس سنة ١٥١٣ وبذلك فشل «البوكيرك» فى الوصول الى جدة أو السيطرة على عدن ، وان كان قد نجح فى أن يرسم لخلفائه خطة غزو هذا البحر الى أقصى شماله عن طريق المعلومات التى جمعها عن طبيعة البحر الاحمر ومراكزه المختلفه وحركة التجارة فيه . هذا فضلا عن معرفة البرتغاليين بامكانات القوى المسيطرة على هذا البحر حتى يمكنهم التغلب عليها أو استقطاب بعضها الى جانبهم ، كما هو الحال مع امبراطورية الحبشة فى ذلك الحين [١١٣] .

على أن أهم هذه القوى التى يخشاها البرتغاليون كانت تتمثل فى الدولة المملوكية التى زاد اهتمامها بمواجهة هذا الخطر بعد توغل البرتغاليين فى داخل البحر الاحمر . وكان السلطان الغورى يوجه كل عناية لاعداد أسطول بحرى ثان فى ميناء السويس لخوض معركة المصير التى سيترتب على نجاحها حل أزمته الاقتصادية ، وبالتالى مواجهة الاضطرابات الداخلية . هذا فضلا عن اعداد الاساطيل القوية للدفاع عن سواحله الشمالية المطلة على البحر المتوسط والتى كانت تهددها آنذاك هجمات « فرسان القديس يوحنا » المقيمين فى جزيرة رودس من جهة ، الى جانب تآمر البنادقة الذين حالفوه بالامس لمواجهة الخطر البرتغالى الذى حرمهم من التجارة الشرقية التى كانوا يقومون بتوزيعها فى أوربا من جهه أخرى . وكان عجز الغورى عن توجيه ضربة قاضية للبرتغاليين قد شجع البنادقة على التحالف مع عدوه الشاه اسماعيل الصفوى فى فارس لاحياء طريق التجارة الشرقية عبر أراضى فارس والعراق الى موانى الشام المطلة على البحر المتوسط بعد أن

---

(١١٣) Wilson, A. : Op. Cit., pp. 119, 120

يهاجم الصفوى المماليك من جهة العراق ويهاجم البنادقة من جهـة البحر المتـوسط (١١٤) .

وعلى أن موقف الامراء الهنود المسلمين ازاء السلطان الغورى كان على النقيض من الموقف الذى اتخذه البنادقة ازاءه ، اذ ظل هؤلاء الامـراء يشجعونه على ارسال حملة بحريه الى الهند للقضاء على النفوذ البرتغالى الذى اشتدت وطأته هناك بعد انتصار البرتغاليين فى موقعة « ديو » فى سنة ١٥٠٩ . وقد أرسل الغورى مندوبا من قبله اليهم ليعدهم بارسال حملة أخرى ويطلب اليهم الاستمرار فى التعاون معه حتى يتحقق النصر (١١٥) وقد تم أخيرا اعداد حملة بحرية جديدة فى شهر أغسطس سنة ١٥١٥ التى عرفت حينذاك بحملة الهند (١١٦) ، وعين الريس سلمان العثمانى قائـدا للاسطول على أن يتولى قيادة الحملة الامير حسين الكردى نائب جـدة بمجرد وصولها الى هناك (١١٧) .

غير أنه لم يقدر لهذه الحملة أن تصل الى هدفها النهائى فى الهنـد وأجبرتها الظروف التى واجهتها أمام السواحل اليمنية بالاضافة الى ظروف الاخرى على التوقف عند عدن . وكان توغل البرتغاليين الى داخل البحـر الاحمر فى سنة ١٥١٣ قد فرض على المماليك أن يتخذوا سياسة دفاعية قوية

---

(١١٤) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٩٦، ٢٠٥ .
(١١٥) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٤ . ص١٨٥ .
(١١٦) ابن اياس : نفس المصدر ،ج ص ٤٦٧ .
(١١٧) أسند الغورى قيادة هذا الاسطول فيما بين السويس وجدة الى الريس سلمان الرومى تقديرا للمعونة العثمانية التى وصلت اليه ، ويقول وجيه الدين الشيبانى فى كتابه « قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون » أن سلمان الرومى هو أمير صاحب الروم ابن عثمان المسمى سليم وكان قد بعثه فى عسكر كثير الى صاحب مصر قونصوه الغورى اعانة له على قتال الافرنج الذين ظهـروا فى البحر فى طريق الهند ص ١٥٥ .

في البحر الاحمر قبل التوجه الى الهند • فقد اهتم المماليك بتحصين ميناء بنده تحت اشراف حسين الكردى ، كما قام هذا الامير باحتلال زيلع ، هذا بالاضافة الى أن المماليك كان لهم نوع من السيادة فى ميناء سـواكن بالسودان • وبذلك لم يبق أمام المماليك الا اقامة القواعد البحرية على السواحل اليمنية وخاصة فى عدن وذلك لتحقيق غرضين ، الاول اغـلاق البحر الاحمر أمام الغزو البرتغالى ، أما الثانى فهو اتخاذ هذا الميناء الهـام قاعدة لنشاط المماليك البحرى فى المحيط الهندى •

وتجدر الاشارة هنا الى أن السلطان عامر بن عبد الوهاب سـلطان الدولة الطاهرية فى جنوب اليمن قد استنجد بالمماليك بعد هجوم «البوكيرك» على عدن فى سنة ١٥١٣ ، كما وافق على أن يقيم السلطان الغورى قواعد بحرية على السواحل اليمنية لمواجهة أى عدوان جديد من قبل البرتغاليين ولتعقبهم فى المحيط الهندى وعندما فشل هجوم البرتغاليين على عدن دون أية مساعدات خارجية ، وتأخر وصول الاسطول المملوكى الى اليمن، تراجع السلطان عامر عن الوفاء بوعده باقامة قواعد بحرية مملوكية على سواحله بعد أن ظن أن الخطر قد زال ، وحرصا منه على استقلال بلاده وتفاديا لاحتمال تعرض شعبه لسيطرة قوى دخيله حتى ولو كانت تربطه بهم رابطة العقيدة والنضال المشترك •

غير أن هذا التراجع من قبل السلطان عامر بن عبد الوهاب الذى حدث بناء على دوافع وطنية ، لم يقابل من الامير حسين الكردى — الذى كان يرى بوضوح استفحال خطر البرتغاليين — الا بمهاجمة السواحل اليمنية بالقوة [118] • ومن هنا توالت الاحداث سريعة ومتوفرة ، فقد نزل المماليك

Ross, E. D.: The Portuguese in India and Arabia betèeen 1507 â 1517; Journal of the Royal Asiatic Society, London, Part IV, October 1921, p.560. Serjeant. R. E.: Op. Cit.. p. 170. (١١٨)

الى جزيرة قمران ، وشرعوا فى بناء سور حول الجزيرة لتحصينها وذلك طبقا لمخططهم العام فى البحر الاحمر باقامة قواعد بحرية فى جنوبه لاغلاقه فى وجه البحرية البرتغالية . وهنا أمر السلطان عامر ولاته فى الموانى اليمنية بمنع وصول الطعام الى المماليك فى جزيرة قمران لزحزحتهم من هناك ، فقام المماليك بضرب ميناء « الحديدة » بالمدافع عندما أمر حاكمه « بحجز ثلاث سفن » كانت قادمة من زيلع من مواصلة رحلتها الى قمران ونقل شحنتها من الاطعمة الى الساحل . وقد نزل المماليك الى الساحل بعد قرار حاكم الحديدة وأخذوا ما يلزمهم من طعام ، كما حملوا معهم بعض الاخشاب والادوات اللازمة لبناء سور حول قمران لتحصينها ضد أى هجوم [١١٩] .

على أن بعض العناصر اليمنية المنافسة للسلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى قامت بالاتصال بالمماليك وشجعتهم على النزول الى الساحل اليمنى والقضاء على حكم هذا السلطان . وكان الامام شرف الدين الذى الذى تولى الامامة الزيدية فى سنة ١٥٠٦ على رأس هذه العناصر . كما كان أشراف « جيزان » على اتصال سابق بالمماليك ليستعينوا بهم فى التخلص من السلطان عامر لتحقيق أطماعهم فى بلاد اليمن . هذا بالاضافة الى بعض الساخطين من أهالى تهامه وجنوبى اليمن الذين أرادوا أن يضعوا حدا لحكم هذا السلطان حتى يتخلصوا من دفع الخراج اليه [١٢٠] .

وقد استفاد المماليك من كل هذه العناصر ونجحوا فى الاستيلاء على بعض المدن التهامية ومن بينها زبيد فى ٢١ يونيو سنه ١٥١٦ وعينوا الامير

---

(١١٩) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ، ص ٥٣ ب .

(١٢٠) ابن الديبع : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون مخطوطة ، ص ١٥٢ (أ) — ١٥٣ (أ) .

« برسباى » حاكما عليها وقائدا للماليك فى منطقة تهامة . ثم أبحر اسطولهم بعد ذلك بقيادة « حسين الكردى » حيث توجه الى زيلع واستولى عليها . وأخيرا اتجه الى عدن فوصل اليها فى ١٢ اغسطس سنة ١٥١٦ حيث تمكن المماليك من الدخول الى الميناء وانزال بعض جنودهم ومعداتهم الى الساحل. وقد استبسلت عدن فى الدفاع عن نفسها معتمدة على حصانتها الطبيعية واحاطة الجبال بها من كل جانب حتى تمكنت من رد القوات المملوكية عنها. غير أن المماليك عاودوا الكرة من جديد عندما انضم اليهم سلمان الرومى الذى كان يطارد بعض السفن اليمنية المتجهة الى الهند ولكن هجومه باء بالفشل. وفى ذلك الوقت وصلت نجدة طاهرية الى عدن مما اضطر المماليك الى مغادرتها فى ١٩ اغسطس سنة ١٥١٦ دون أن يحققوا أهدافهم [١٢١] . وبذلك ظلت عدن فى أيدى الطاهريين حتى استولى عليها الاتراك العثمانيون فى سنة ١٥٣٨ .

ونظرا لفشل المماليك فى السيطرة على عدن فى سنة ١٥١٦ فانهم قرروا تأجيل ذهابهم الى الهند حتى يضمنوا حماية البحر الاحمر وتأمين خط رجعتهم . كما قرروا أيضا أن يتخذوا سواحل تهامة اليمنية خط دفاع أول عن البحر الاحمر ، على أن تكون جدة خط الدفاع الثانى . ولهذا اتجه حسين الكردى وسلمان الرومى الى جدة لتركيز الدفاع بها بدلا من عدن حتى يتحينوا الفرصة للهجوم عليها من جديد غير أن سقوط الدولة المملوكية فى يد السلطان سليم الاول (١٥١٢ — ١٥٢٠) الذى دخل مصر فى سنة ١٥١٧ أدى الى مسارعة أشراف مكة بالدخول فى طاعة العثمانيين ، كما قتلوا حسين الكردى غرقا أمام ميناء جدة بعد أن أوهموه باستدعاء السلطان

---

(١٢١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى اخبار مدينة زبيد ، ص ٥٤ ب .

سليم له ؛ (١٢٢) وذلك انتقاما منه لاعماله القاسية أثناء ولايته لجدة • على أن حسين الكردى يرجع له الفضل فى اقامة التحصينات التى صدت الهجوم البرتغالى الكبير على مكة فى سنة ١٥١٧ باعتراف البرتغاليين أنفسهم • كما قام سلمان الرومى بعد أن صد هذا الهجوم بتعقب البرتغاليين أثناء تقهقرهم من البحر الاحمر واستولى على احدى سفنهم وأسر بحارتها عندما اتجهت الى ميناء اللحية اليمنى للحصول على المؤن اللازمة (١٢٣) • ولاشك أن خطة المماليك واستراتيجيتهم فى البحر الاحمر التى كانت ترتكز على تدعيم سيطرتهم فى جهات هذا البحر ، واتخاذ عدن قاعدة لهم فى جنوبه ، هى نفس الخطة والاستراتيجية التى اتبعها العثمانيون فيما بعد قبل أن يرسلوا حملتهم الكبيرة الى الهند فى سنة ١٥٣٨ (١٢٤) • وتؤكد الخطتان المملوكية والعثمانية أهمية عدن البارزة وموقعها الاستراتيجى الهام كقاعدة للدفاع عن منطقة البحر الاحمر بأكملها ضد أى خطر تتعرض له المنطقة وخاصة من ناحية الجنوب •

على أن موقف المماليك الموجودين داخل اليمن والذين استقروا فى زبيد تحت قيادة الامير « برسباى » فقد كان من الطبيعى أن ينشأ صدام بينهم وبين الطاهريين بزعامة السلطان عامر بن عبد الوهاب • وقد ظل السلطان عامر لايعترف بنفوذ المماليك فى تهامة حتى قدر له أن يقتل وهو يقاتلهم على مقربة من صنعاء فى اليوم الخامس عشر من مايو سنة ١٥١٧ واستولى المماليك على صنعاء (١٢٥) • وهكذا انتهى حكم آخر سلاطين

---

(١٢٢) قطب الدين النهروالى : الاعلام بأعلام بلد الله الحرام ، ص ١٢٨ •

(١٢٣) Serjeant, R. E. : Op. Cit., p. 170.

(١٢٤) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٨٩ •

(١٢٥) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوطة ، ص ١٦ (أ) •

آل طاهر الذى تمكن من توحيد معظم أجزاء اليمن حتى امتد حكمه من صعده وجيزان فى الشمال الى عدن وحضرموت فى الجنوب . وقد انقلب ميزان القوى فى اليمن بعد ذلك ليصبح فى أيدى الائمـــة الزيديين الذين عاصروا ــ فيما بعد ــ وصول الاتراك العثمانيين الى اليمن بعد أن ورثوا الحكم المملوكى فى مصر والشام والحجاز بكل مشكلاته ، وفى مقدمة هذه المشكلات مواجهة المنافسة البرتغالية فى البحار الشرقية فى ذلك الحين والحيولة دون سيطرة البرتغاليين على منطقة البحر الاحمر ومحاولة اعادة تدفق التجارة العالمية عبر طريقها التقليدى القديم . وتجدر الاشارة الى أن المماليك بعد سيطرتهم على صنعاء اصطدموا بالامام الزيدى شرف الدين الذى رفض التوجه الى صنعاء لمقابلة قائدهم ، كما رفض عقد أى اتفاق معهم . وكان اصطدام الامام ــ حليف الامس ــ بالمماليك أمرا متوقعا ، اذ أنه لم يطلب منهم امداده ببعض الجند والسلاح الا لتحقيق اغراضه الخاصة ومصالحه فى اليمن ، وليس لكى يستأثروا بالتسلط على البلاد لانفسهم ، خاصة بعد أن سيطروا على صنعاء ، الامر الذى تعارض تماما مع تطلعاته وآماله . وقد تقدم المماليك لمحاصرة الامام شرف الدين فى « ثلاء » بعد أن فشلت محاولاتهم للاتفاق معه . وقد ظلوا يحاصرون مدينة « ثلاء » حتى وصلهم نبأ سقوط دولتهم المملوكية على ايدى العثمانيين . وهنا رفع المماليـك حصارهم عن « ثلاء » وعادوا الى صنعاء فى اليوم الخامس من يونيو سنة ١٥١٧ ، حيث أعلن قائدهم الامير « اسكندر » خضوع المماليك فى اليمن للسيادة العثمانية [١٢٦] . كما فضل هذا الامير ترك صنعاء والعودة الى زبيد لقربها من الساحل فوصل اليها فى ١٩ يوليه ســـنة ١٥١٧ ، بعد أن

---

(١٢٦) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المـــائة التاســـعة من الفتن والفتوح ، مخطوطة ، ج ١ ، ص ٦٣ (أ) .

واجهت الحملة فى طريقها اعتداءات كثيرة من قبل القبائل اليمنية [١٢٧] • وهذا يوضح مدى الضعف الذى حل بالمماليك فى اليمن بعد أن هـزمت دولتهم على يد العثمانيين •

أما بالنسبة للبرتغاليين فقد ازداد خطرهم بعد وفاة « البوكيرك » فى شهر ويسمبر سنة ١٥١٥ ، وعين « لوبوسوريز » نائبا لملك البرتغال فى الهند •[١٢٨] وقد تحددت خطة البرتغاليين فى القضاء على القوة المملوكية فى البحر الاحمر واغلاقه فى وجه السفن العربية ، كما أنهم تحالفوا مـع الحبشة لاعلان الحرب المشتركة على القوى الاسلامية فى ذلك الحين • وقد ركز البرتغاليون هجومهم على جده التى أصبحت قاعدة المماليك للدفـاع عن البحر الاحمر بعد فشلهم فى الاستيلاء على عدن فى سنة ١٥١٦ • ولهذا فان « لوبو سوريز » لم يهاجم عدن عند وصوله اليها على رأس حمـلة برتغالية ، بل انه طلب من واليها أن يمده بالمؤن اللازمة للحملة وببعض المرشدين البحريين لتوصيلها الى جدة وذلك فى سنة ١٥١٧ • وأمام هذه القوة البرتغالية اضطر الامير مرجان حاكم عدن أن يلبى مطالب البرتغاليين حتى لا يحتلوا عدن • وهذا ما دفعه الى عدم اظهار عداوته للبرتغاليين حتى يتقى شرهم ، ولم يكن هذا الموقف تخاذلا من قبله بدليل أنه قام اثناء وجود الحملة فى داخل البحر الاحمر بعمل كافة الاستعدادات الممكنة للدفاع عن عدن حتى لا يفاجئ بهجوم البرتغاليين عليها وهم فى طريق عودتهم الى الهند • كما أنه جدد استعداداته للمرة الثانية عندما علم بوجـود حمـلة برتغالية جديدة على مقربة من عدن فى سنة ١٥٢٠ • على أن الحملة البرتغالية

---

(١٢٧) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى اخبار مدينة زبيد، مخطوطة ص ٥٥ ب •

(١٢٨) Wilson, A. : Op. Cit., p. 121.

الاولى فشلت أمام جده بفضل التحصينات التى أقامها المماليك هناك،ونتيجة للجهود التى بذلها سلمان الرومى الذى طارد السفن البرتغالية بعد وصولها الى جزيرة قمران وتتبعها فى جنوبى البحر الاحمر حتى وصلت الى عدن ثم سارعت بمغادرتها الى مياه الهند .

وقد واصل البرتغاليون تنفيذ خططهم فى البحر الأحمر على نحو مابدا فى الحملة البرتغالية التى وصلت الى مدخل هذا البحر فى سنة ١٥٢٠ والتى ركزت اهتمامها على مهاجمة جدة على وجه الخصوص ، هذا فضلا عن انزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية الى السواحل الحبشية . وقد عاد البرتغاليون الى الاهتمام بعدن بعد أن فشلوا فى الوصول الى جدة نظرا لمعاكسة الرياح لهم من جهة ، ووجود حشود كثيرة فيها من جهة أخرى ، مما جعلهم يخشون مهاجمتها . ولهذا راوا من الافضل لهم أن يسيطروا على عدن حتى لا تقع فى قبضة العثمانيين . وكان الامير مرجان حاكم عدن قد أراد أن يقوى جانبه حينذاك بالاتصال بالاتراك العثمانيين . عقام باعداد خطاب طويل على لسان السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى الذى كان قد قتل اثناء صراعه مع المماليك ، موقع عليه من قبل بعض الفقهاء والتجار فى عدن يؤكدون ماجاء به ، ووجهه الى السلطان العثمانى سليم الأول ، واشتكى فيه من أعمال حسين الكردى وسلمان الرومى أمام عدن ، ومن تصرفات المماليك فى اليمن ، كما أوضح الاسباب التى دفعته لمهادنة البرتغاليين حتى لا يعرض عدن للخطر (١٢٩) .

على أن البرتغاليين قد واصلوا ارسال حملاتهم البحرية سنويا الى البحر الاحمر لمهاجمة ميناء جدة دون جدوى ، كما هاجموا ميناء «الشحر»

---

(١٢٩) بامخرمة : أبو الطيب عبد الله بن أحمد بن على : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، مخطوطة ، ج ٣ ، ق٢ ، ص ١٢٠٥—١٢٠٦ .

اليمنى ونهبوه فى سنة ١٥٢٣ أثناء توجههم الى ميناء مصوع لتنسيق التعاون بينهم وبين الاحباش ، [١٣٠] بل ان البرتغاليين وجهوا اسطولا بقيادة « دى سلفيرا » الى عدن من جديد وأجبروا حاكمها — الذى خلف الامير مرجان بعد وفاته فى سنة ١٥٢١ — على عقد معاهدة معهم نصت على أن تدفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين ، وعلى أن تفتح ميناءها للسفن البرتغالية [١٣١] . غير أن نائب ملك البرتغال فى الهند وهو القائد البحرى الشهير « فاسكوداجاما » رفض ابرام هذه المعاهدة لانه كان يؤمن بضرورة بسط سيطرة البرتغاليين الكاملة على المراكز التجارية الهامة . وقد أدى ذلك الى قيام حملة برتغالية فى سنة ١٥٢٥ بضرب عدن بالمدافع وهى فى طريقها الى مصوع ، ولكنها لم تحقق أى هدف للبرتغاليين فى ذلك الحين . وهذا ما جعل البرتغاليين يفضلون أخيرا عقد معاهدة جديدة مع حاكم عدن وقام « دى سلفيرا » بفرض هذه المعاهدة على حاكم عدن بالقوة فى شهر فبراير سنة ١٥٣٠ . ونصت المعاهدة على اعتراف عدن بسيادة البرتغاليين عليها وبدفع الجزية السنوية اليهم ، وذلك نظير اعتراف البرتغاليين بحرية الملاحة لسكان عدن ولكن بشرط عدم توجههم الى جدة [١٣٢] ، ولكى يضمن البرتغاليون تنفيذ هذه المعاهدة تركوا فى ميناء عدن احدى سفنهم وقوة قوامها أربعين برتغاليا ليشرفوا على الميناء وعلى ايراداته المالية [١٣٣] .

وتجدر الاشارة الى أن موقف حاكم عدن ازاء البرتغاليين فى ذلك الحين — الذى بدا فى اضطراره الى قبول عقد معاهدة معهم — قد أثار غضب اليمنيين مما جعله يتعرض لهجوم الفقهاء والعلماء عليه . غير أن

---

(١٣٠) Marston, T. E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, P. 23.
(١٣١) Kammerer, A. : Op . Cit., Tome II., pp. 283, 286.
(١٣٢) Kammerer, A. : Ibid . Tome II., PP. 287, 288.

(١٣٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١١١ .

حجة هذا الحاكم تركزت دائما فى حرصه على عدم تعرض عــدن للاحتلال الكامل من قبل البرتغاليين المتفوقين حربيا من جهة ، وفى خشيته من هجوم المماليك عليها من داخل اليمن أو من ناحية البحر من جهة آخرى • وقــد اضطره هذا الموقف الى مهادنة البرتغاليين وعقد المعاهدة المذكورة معهــم دون أن يقصد من وراء ذلك ان يتحول ليصبح عميلا لهم • ومما يؤكــد اخلاص هذا الحاكم لبلاده أنه قام بعد مضى وقت قليل على رحيل الحملة البرتغالية عن عدن بالقبض على البرتغاليين الموجودين فيها حينذاك وأودعهم السجن فى مؤخرة المدينة بالقرب من الجبال المحيطة بها • بل انه سخرهم بعد ذلك فى صناعة الاسلحة والالات الحربية التى يتقنون صنعها • وفى نفس الوقت فقد قام هذا الحاكم اليمنى بالكتابة الى السلطان ســليمان المشرع (١٥٢٠ — ١٥٦٦) يبلغه بالدخول فى طاعته(١٣٤) • وكان يهــدف من وراء هذا التصرف أن يقوى من جانبه بالاستعانة بهذه القوة الأسلامية المتمثلة فى السلطنة العثمانية ليتمكن من مواجهة البرتغــاليين اذا حاولوا مهاجمة عدن من جديد • وبذلك ظلت عدن تحافظ على استقلالها وحريتها على الرغم من فقدها لمقوماتها الاقتصادية نتيجة للحصار البحرى البرتغالى المفروض عليها من جهة ، وافتقارها لمساندة الجبهة الداخلية المنهارة بعد سقوط الدولة الطاهرية من جهة أخرى • ولهذا اضطرت عدن الى الاعتماد على ذاتها حتى تمكنت من المقاومة حينا ، ومن مهادنة البرتغاليين حينا آخر ثم تقربت الى العثمانيين بعد ذلك حتى سقطت فى أيديهم فى سنة ١٥٣٨ • وقد اتخذها العثمانيون قاعدة للوثوب على البحرية البرتغالية فى الهند من جهة ، ثم للدفاع عن الحدود الجنوبية للسلطنة العثمانية من جهــة أخرى عندما عجزوا عن تحقيق غايتهم الاولى •

---

(١٣٤) Serjeant. R. B.: Op. Cit., PP. 55, 59.

على أن العثمانيين بعد أن ورثوا حكم السلطنة المملوكية فى سنة١٥١٧ فانهم بدأوا يحملون لواء الحرببأنفسهم ضدالبرتغاليين والاسبانفىالبحر المتوسطعلىالنحو الذىأشرنااليهوفى البحار الشرقيةوخاصةفىالبحر الاحمر. اذ كان على العثمانيين أن يعالجوا أهم المشاكل السياسية والاقتصـادية التى واجهوها فى مصر بعد أن حول البرتغاليون طريق التجارة العالميـه عنها وعن عالم البحر المتوسط الى طريق رأس الرجاء الصالح (١٣٥) ، مما جعل الحرب مع البرتغاليين ضرورة حتمية . وقد راد من خطورة البرتغاليين فى نظر العثمانيين تحالفهم مع الشيعة الصفويين فى فارس الذين كانوا على عداء مذهبى مع الدولة العثمانية . كما حرص العثمانيون على الدفاع عن الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ضد الخطر البرتغالى لينالوا بذلك شرف حماية الحرمين الشريفين حتى تكون لهم الزعامة فى العالم الاسلامى.

وقد اتصفت خطوات العثمانيين لتدعيم نفوذهم فى البحر الاحمر فى بداية الامر بالضعف فى الفترة التى أعقبت سيطرتهم على مصـــر وحتى سيطرتهم على اليمن فى سنة ١٥٣٨ . ويرجع السبب فى ذلك الى انشغال العثمانيين فى جبهات متعددة آنذاك مما جعل سيادتهم فى هذا البحر سياده رغم محاولاتهم المتعددة لفرض نفوذهم الفعلى هناك . وقد ظل المماليك الموجودين فى اليمن حينذاك يمثلون السيادة الاسمية للعثمانيين فى جنوبى البحر الاحمر وخاصة فى بلاد اليمن ، غير أنهم انصرفوا الى أعمال السلب والنهب ، كما أنهم حاولوا الاحتفاظ بكيانهم الخاص هناك رغم اعترافهم بالسيادة للعثمانيين ولكن نجاح بعض العمليات الحربيـــة للبرتغاليين فى جنوب البحر الاحمر حتم على العثمانيين ضرورة اتخاذ خطوة ايجابيـــة لحماية حدود دولتهم من الجنوب ودرء خطر الغزو البرتغالى الصليبى عن

---

(١٣٥) محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسةمصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير ١٨٦٤—١٨٦٦ ، ص ٩٣ .

اسمية رغم محاولاتهم المتعددة لفرض نفوذهم الفعلى هناك . وقد ظل المماليك

الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ، ومحاولة توجيه ضربة للبرتغاليين لاعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدى القديم عبر مصر وعـالم البحر المتوسـط ٠

وقد رأى العثمانيون أن سيطرتهم الفعلية على اليمن ستحقق أهدافهم فى حربهم ضد البرتغاليين آنذاك ٠ فهى بحكم موقعها الممتاز فى جنوب غرب الجزيرة العربية[١٣٦] وبحكم اشرافها على مضيق باب المندب ؛ تعتبر منطقة دفاع هامة عن حدود الدولة العثمانية من ناحية الجنوب ، بحيث بمكنهم بالسيطرة عليها أن يضمنوا سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ، وأن يتحكموا فى البحرين الاحمر والعربى ؛ فضلا عن امتلاك موطىء صالح للوثوب على البحرية البرتغالية فى البحار الشرقية ؛ وتطويق أعدائهم الشيعة الصفويين فى فارس من الجنوب ، وتحقيق أحلامهم بمـد سيطرتهم شرقا الى أقاصى العالم الاسلامى [١٣٧] ، واعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدى القديم عبر مصر وعالم البحر المتوسط من جديد ٠

وبمكننا أن نتتبع خطوات العثمانيين فى البحر الاحمر وجهودهـم لتدعيم نفوذهم الفعلى فى بلاد اليمن بعد أن ضعفت الحامية المملوكية هناك — رغم اعترافها بسيادة العثمانيين — عن تحقيق أهدافهم فى الفترة الممتدة بين عامى ١٥١٧و١٥٣٨ [١٣٨] ٠كما لم تؤد الحملة البحرية الاولى التىأرسلها العثمانيون الى جنوب البحر الاحمر والى الهند فى سنة ١٥٢٦ وتكونت من عشرين سفينة الا الى زيادة المنازعات بين الامراء المماليك داخل اليمن

---

(١٣٦) الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة العرب ص ٥١ . الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ص ٨ .

(١٣٨) ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية ، مخطوطة ، ج ١ ، ق١ ، ص ١٨٧ ب .

ـ وان كانت قد نجحت نسبيا فى القضاء على بعض العناصر القوية هناك مما مهد السبيل أمام العثمانيين فيما بعد للسيطرة على البلاد [١٣٩] غير أن هذه الحملة لم تتمكن من القيام بعمل يذكر فى الهند ضد البرتغاليين الذين ازداد خطرهم بتحالفهم مع الصفويين فى فارس ، وقد تأكد العثمانيون من هذا الخطر بعد دخول أمراء البصرة والقطيف والبحرين فى طاعة الدولة العثمانية فى أعقاب فتح بغداد فى سنة ١٥٣٤ بحيث أصبح العثمانيون يواجهون البرتغاليين مباشرة فى البحر الاحمر والخليج العربى على السواء ولهذا قرر العثمانيون توجيه حملة ثانية الى الهند لتحقيق غاياتهم وأهمها طرد البرتغاليين من البحار الشرقية • وبناء على أوامر السلطان سليمان المشرع تم تجهيز حملة قوية أبحرت من ميناء السويس ٢٧ يونيو سنة ١٥٣٨ بقيادة سليمان باشا الخادم الذى كان واحدا من مماليك السلطان سليم الاول المقربين اليه [١٤٠] • وقد اتخذ قائد الحملة كافة الخطوات اللازمة لتنفيذ خطة العثمانيين العامة فى البحر الاحمر والتى تستهدف سيطرتهم عليه قبل ارسال الاسطول العثمانى الى الهند • وقد اتصل سليمان الخادم بالأمراء الحاكمين فى جهات البحر الاحمر وخاصة أمراء الساحل اليمنى مثل أميرى عدن والشحر طالبا اليهم الدخول فى طاعة العثمانيين • وقد قبل سلطان الشحر بدر الطويرق اعلان ولائه للعثمانيين ، بينما رواغهم عامر بن داود الطاهرى حاكم عدن ولم يرد على رسالة سليمان باشا اليه ، فكان ذلك من أسباب قتله غدرا عقب وصول الحملة الى عدن •

وقد وصلت الحملة العثمانية الى عدن فى اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٥٣٨ [١٤١] وما أن شاهدها عامر بن داود حتى اضطر الى أن يغير من

---

(١٣٩) ابن داعر : المصدر السابق ، مخطوطة ، ج١ ، ص ١٨٨ (أ) •

(١٤٠) Hammer, J.: Op. Cit., Tome 5., P. 302.

(١٤١) Playfair, R. L.: op. Cit., P. 101.

سياسته ازاء قوة العثمانيين الهائلة • ولهذا فقد أحسن استقبال الحملة وفتح أمامها أبواب المدينة حتى يحصلوا على ما يشاؤن من طعام ومؤن بناء على مطلب سليمان باشا الخادم • غير أن الاخير كان قد كلف جنوده سرا بقيادة الصوباشى فرحات بالاستيلاء على عدن عقب دخولها مباشرة • وقام الجنود العثمانيون بتنفيذ الخطة على الفور ، بل انهم قاموا أيضا بسلب المدينه ونهبها حتى استدعاهم بعض القادة حرصا منهم على عدم اشاعة الفوضى فى المدينة • وفى نفس الوقت الذى دخل فيه الجنود العثمانيون مدينة عدن كان عامر بن داود قد توجه الى سفينة القيادة ومعه ستة من كبار أتباعه لمقابلة سليمان باشا الخادم بناء على دعوته • وقد أحسن الاخير استقباله فى بداية الامر وخلع عليهم (١٤٢) • حتى وصله نبأ احتلال جنوده لمدينة عدن ، فتنكر لعامر ابن داود ورفاقه(١٤٣) وأمر بشنقهم على صارى سفينته وتركهم معلقين به لمدة ثلاثة ايام (١٤٤) •

وهكذا تم استيلاء العثمانيين على عدن بعد خمسة أيام من وصولهم اليها أى فى اليوم الثامن من اغسطس سنة ١٥٣٨ (١٢ ربيع الاول سنة ٩٤٥هـ) • وقد أمر سليمان باشا الخادم بقتل من بقى من آل طاهر ، وكانت عدن آخر معاقلهم . كما أمر بمصادرة ممتلكاتهم وذلك بحجة انهم حاولوا تسليم عدن للبرتغاليين • وقد أنكر كثيرون من المؤرخين هذه التهمة (١٤٥) التى تتعارض تماما مع ما سبق أن أوضحناه عنهم من قبل • وقد أناب سليمان باشا الخادم على حكم عدن أحد سناجق الحملة وهو الامير « بهرام » تساندة قوة قوامها خمسمائة مقاتل عثمانى ، كما حصن مدينة

---

(١٤٢) عيسى بن لطف الله : المصدر السابق ، مخطوطة ، ج١ ، ص ١٨ •
(١٤٣) قطب الدين النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، مخطوطة، ص ٥ (أ) •
(١٤٤) الجرافى ، عبد الله بن عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص٨٨
(١٤٥) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبد التاريخ ، ص ٢٦٢ •

عدن بالمدافع [١٤٦] . وقد اخفى سليمان باشا الخادم اسلوبه الغادر فى عدن عن المسئولين العثمانيين فى استانبول ، وذكر فى رسالة بعث بها الى السلطان العثمانى « أنه أخذ عدن قهرا » [١٤٧] . غير أن اسلوب سليمان الخادم الذى اتصف بالغدر أفقد العثمانيين ثقة اهالى هذه المناطق ، كما أنه ضيع عليهم فرصة تكوين جبهة اسلامية فى البحار العربية والمحيط الهندى لمواجهة خطر البرتغاليين المتزايد [١٤٨] واعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدى القديم عبر مصر والبحر المتوسط .

على أن العثمانيين بعد أن سيطروا على عدن أبحرت حملتهم متجهة الى « ديو » لتحقيق المرحلة الثانية من خطتهم الرامية الى محاربة البرتغاليين فى البحار الشرقية . وقد وصلت الحملة العثمانية الى «ديو» فى اليوم الرابع من سبتمبر سنة ١٥٣٨ غير أنها فشلت فى تحقيق غايتها ، نتيجة لضعف شخصية قائدها سليمان الخادم من جهة ، وضعف جبهة حلفائها الهنود فى سلطنة « كجرات » وباقى سلطنات ساحل الهند الغربى من جهة أخرى . وكان ما فعلته هذه الحملة هى أنها حاصرت القلعة البرتغالية فى « ديو » من ناحية البحر فى اليوم الخامس من اكتوبر سنة ١٥٣٨ . بل ان هذا الحصار لم يستمر طويلا بعد ان أدخل على العثمانيين نبأ وصول نجدة برتغالية الى « ديو » . اذ قرر سليمان الخادم رفع الحصار والعودة الى شواطىء الجزيرة العربية وذلك فى اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٥٤٨ [١٤٩] . وبذلك اكتفى العثمانيون بأن يكون هدف

Serjeant, R. B. : Op. Cit., P. 95.

(١٤٧) قطب الدين النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص ١٨ (ب) .

(١٤٨) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(١٤٩) Denison, R. E. : The Portuguese in India and Arabia J. R. A. S., part I., January, 1922, P. 7.

حملتهم قاصرا على اتمام فتح السواحل اليمنية التى يمكن عن طريقها تأمين امبراطوريتهم من الجنوب وحتى يعوضوا أنفسهم عن الفشل (١٥٠) . الذى منوابه فى محاربة البرتغاليين على السواحل الهندية .

واذا كان العثمانيون قد نجحوا فى السيطرة بعض الوقت على الثغور البحرية الواقعة على طـول الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية بما فيها ميناء عدن وثغور حضرموت ، كما نفذوا الى داخل الخليج العربى حتى وصلوا الى البصرة واتصلوا بالامارات العربيه فى الخليج كعمان والاحساء والبحرين والكويت ، فان سلطانهم لم يستقر هناك نظرا لان سكان المناطق الداخلية لم يعترفوا بالولاء للسلاطين العثمانيين مما أدى الى زوال نفوذهم عن تلك المناطق فى وقت قصير (١٥١) .

وعقب وصول سليمان الخادم الى ميناء الشحر اليمنى بدأ فى اتخاذ الخطوات التنفيذية لاخضاع السواحل اليمنية للسيطرة العثمانية . وقد أصدر أمره بتولية السلطان بدر الطويرق على حكم حضرموت تحت سيادة العثمانيين على أن يدفع لهم جزية سنوية (١٥٢) ثم اتجه بعد ذلك الى عدن التى أبحر منها الى ميناء مخا حيث أنزل قواته الى الساحل اســتعدادا لاخضاع المماليك فى زبيد لسيطرة العثمانيين . وقد أغرق الناخوده أحمد بتعيينه حاكما لليمن نيابة عن الدولة العثمانية (١٥٣) . غير أنه غدر بعامر بن داود وأمر بقتله فى ٢٧ فبراير سنة ١٥٣٩ ، وقام بتعيين أحد أمراء

---

(١٥٠) العقيلى ، محمد بن احمد عيسى : تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، ج١ ، ق٢ ، ص ٣٠٧ .

Sanger, R. : The Arabian Peninsula, p. 220.

Serjeant, R. B. 0p. Cit., P. 106.

(١٥٣) قطب الدين النهـــروالى : البرق اليمانى فى الفتـــــح العثمانى ، مخطوطة ، ص ١٩ (أ) .

الحملة وهو مصطفى بك نائب «غزة» السابق حاكما لزبيد والمناطق التهامية فى اليمن التى كانت خاضعة للحكم المملوكى . وقد استعان سليمان الخادم بكثير من المماليك فى بعض المناصب الادارية والحربيه مستفيدا من خبرتهم فى شئون اليمن . واذا كان العثمانيون قد قضوا على الطاهريين بعد استيلائهم على عدن من جهة ، واخضعوا المماليك بعد استيلائهم على زبيد من جهة أخرى ، فان ذلك كان يعنى بداية المواجهه المباشرة بينهم وبين القوة الثالثة فى اليمن وهى الامامة الزيدية من جهة ثالثة ، وهى التى كان يتزعمها حينذاك الامام الزيدى شرف الدين بن يحيى . ورغم محاولة سليمان الخادم استدراج الامام شرف الدين عن طريق الرسل والرسائل على نحو ما فعل مع عامر بن داود والناخوده أحمد ، غير أن الامام كان متيقظا حذرا ، ولهذا ظل الطرفان يتبادلان الرسائل حتى غادر سليمان الخادم بلاد اليمن [١٥٤] دون ان ينجح فى القضاء على الامام شرف الدين (١٥٥) . وسيظل نظام الامامة الزيدية قائما فى اليمن طوال العهد العثمانى وبعد نهايته وحتى قيام ثورة اليمن فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م .

وقد حرص سليمان الخادم على احكام سيطرة العثمانيين على المدخل الجنوبى للبحر الاحمر حتى يمنع تسرب أية سفينة برتغالية عبر مضيق باب المندب . ولهذا اهتم بتحصين جزيرة قمران وذلك بانزال بعض مدافع الاسطول الكبيرة اليها . كما قام باخضاع ميناء « جيزان » للسيطرة العثمانية اثناء عودته الى جدة ووضعه تحت الاشراف المباشر لوالى زبيد العثمانى [١٥٦] واخيرا وصل سليمان الخادم الى جدة فى ١٣ مارس

---

(١٥٤) ابن داعر : المصدر السابق ، مخطوطة ، جا ، ق١ ، ص ١٨٨ (ب) .

(١٥٥) يحيى بن الحسين : المصدر السابق ، مخطوطة ، ص ١٢٢ .

(١٥٦) قطب الدين النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص٩٩ب

سنة ١٥٣٩ ومكث فيها بعض الوقت ثم عاد بعد ذلك الى استانبول [١٥٧] ، بينما عادت الحملة العثمانية الى مصر بعد أن انتهت من عملياتها على الساحل اليمنى .

وتجدر الاشارة الى أن الامور لم تستقر فى يد العثمانيين فى عدن على الرغم من أن سليمان الخادم كان قد ترك حامية قوية هناك لتدعيم السيطرة العثمانية على المدينة . غير أن سكان عدن قاموا بثورة ضد الاتراك مما اضطر العثمانيين الى توجيه اسطول قوى يقوده « برى باشا » لاقرار الامور فى عدن فى سنة ١٥٥١ وليحفظ للدولة العثمانية هيبتها فى هذه الجهات وقد قام « بـرى » بقصف تحصينات عدن واستولى عليها بهجوم خاطف وطرد البرتغاليين الذين كانوا قد انتهزوا الفرصة ونفدوا الى هناك ، ثم ترك فيها حامية قوية وأبحر عائدا الى مصر [١٥٨] . وعلى أية حال فقد ارتبطت العمليات البحرية العثمانية ضد البرتغاليين عند المدخل الجنوبى للبحر الاحمر وفى خليج عدن والمحيط الهندى بفكرة أن عدن هى القاعدة الاساسية من الناحية الاستراتيجية لهذه العمليات [١٥٩] ، مما أوجب على العثمانيين ضرورة المحافظة على بقائها فى أيديهم .

ولم ينقض النصف الاول من القرن السادس عشر الا وكان العثمانيون قد طردوا البرتغاليين من البحر الاحمر واستولوا على الموانى الهامة على شاطئيه الاسيوى والافريقى وهى سواكن وعقيق ومصوع ودهونو على الساحل الافريقى . كما استولوا على عدن وحصنوا جدة على الساحل الاسيوى ، وجعلوا من البحر الاحمر بحيرة عثمانية أغلقوها فى وجه السفن

---

(١٥٧) Playfair, R. L.: op. Cit., pp. 102, 103.

(١٥٨) Hunter, F. M.: Op. Cit., P. 163.

(١٥٩) محمد عبد اللطيف البحراوى (دكتور) : فتـح العثمانيين عدن عام١٥٢٨ ،ص١٢

الاوروبية • وفى منتصف هذا القرن أيضا عين العثمانيون حاكما تركيا على مصوع وآخر على سواكن ، ووضعوا هذين الحاكمين تحت اشراف والى جدة وهو حاكم الحجاز ، كما استعانوا بأحد الزعماء الوطنيين وهو نائب « أركيكو Arikiko » للمعاونة فى أعمال الحكومة بمصوع ، واستعانوا أيضا بآخر مثله فى سواكن ، وكلفوهما بجباية الضرائب من القبائل المنتشرة على الساحل الغربى للبحر الاحمر [١٦٠] •

وتجدر الاشارة الى أن الدولة العثمانية حرصت على تدعيم قوتها فى اليمن فى عهد السلطان سليم الثانى (٩٧٤ — ٩٨٢هـ / ١٥٦٦ — ١٥٧٤م) لتثبيت حكمها هناك أمام مقاومة الامامة الزيدية من جهة ، وللتصدى لنشاط البرتغالى المتزايد فى المحيط الهندى من جهة ثانية ، ومحاولة السيطرة على تجارة الهند والشرق الاقصى من جهة ثالثة ، وذلك بارسال حملة سنان باشا التى وصلت الى اليمن فى سنة (٩٧٦هـ — ١٥٦٩م) واعتبرت فتحا عثمانيا لليمن [١٦١] وأظهرت أن الدولة العثمانية ظلت تواصل مهمتها حتى هذا التاريخ فى التصدى للبرتغاليين فى البحار الشرقية [١٦٢] بتدعيم مركزها فى اليمن آنذاك [١٦٣] • كما امتد نضال العثمانيين ضد البرتغاليين كذلك الى الساحل الشرقى لافريقيا • فقد أرسل السلطان العثمانى مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) القائد البحرى « ميرال بك Mirale Bey » فى سنة ١٥٨٨ بقوة لتخليص البلاد الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقى لافريقيا من السيطرة البرتغالية • وقد قوبل القائد العثمانى بالترحاب من قبل سكان

Plowden, W.: Travels in Abyssinia and the Galla Country, PP. 2, 3.

(١٦١) قطب الدين النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص٣١٢

Hammer, J. : Op. Cit., Tome 6., 367.

(١٦٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .

عمر عبد العزيز (دكتور) : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص١٠٣ .

الامارات الاسلامية فى « مدغشقر » و « براوا » و (قسيمايو) اذ نظروا اليه نظرة المخلص من يد الاجنبى وفضلوا الخضوع للعثمانيين المسلمين عن الولاء للبرتغاليين (١٦٤) .غير أن العثمانيين لم يستطيعوا أن يحتفظوا فى هذه البلاد بقوات تثبت سلطانهم وتحمى السكان من اغارات البرتغاليين الذين مالبثوا أن استعادوا سلطانهم وانتقموا من السكان الذين أظهروا ولاءهم للعثمانيين .

وقد اتخذ الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين على السواحل الافريقية الشرقية فيها السواحل الافريقية للبحر الاحمر صورا متعددة ، منها أن الدولة العثمانية كانت تؤيد وتعاون الممالك الاسلامية المحيطة بهضبة الحبشة والتى سميت بممالك الطراز . بينما كانت البرتغال تؤيد الحبشة وتعينها على مهاجمة هذه الممالك الاسلامية المحيطة بها . وظل ذلك الصراع حتى القرن السابع عشر عندما فترت الحمية فى الدولتين وضعفت قوتيهما فتركت الدولة العثمانية اليمن فى سنة ١٦٣٥ ، ولم يبق تحت سيادتها الا بعض الثغور الافريقية يمصوع ، وذلك بعد أن اضطر البرتغاليون الى التنازل عن مكانتهم فى البحار الشرقيه لمنافسيهم الهولنديين والانجليز والفرنسيين الذين أسسوا شركات استعمارية لهم فى المحيط الهندى . على ان العرب فى البحار الشرقية بوجه عام وفى البحر الاحمر بوجه خاص ، قد رحبوا فى بداية الامر بمساعدة العثمانيين المسلمين لهم فى كفاحهم المرير ضد البرتغاليين وغيرهم من الاوربيين الذين جاءوا لاستعمار بلادهم والسيطرة على مقدراتهم . كما قبلوا أن ينزلوا للعثمانيين عن قيادة المعركة بل وأيضا عن السيادة فى دارهم مما مهد السبيل أمام العثمانيين للسيطرة على معظم البلاد العربية وخاصة فى حوض البحرين المتوسط والاحمر

---

(١٦٤) Coupland, R.: Op. Cit., p. 59.

عفترة قصيرة•وكان ذلك بمثابة الثمن الذى تقاضاه العثمانيون لقاء الحملات التى وجهوها للشام و مصر فى حوض البحر المتوسط من جهة ، ومن قاعدة السويس الى البحار الشرقية من جهة أخرى والتى انتهت جميعها الى الخليج العربى ، وان كان بعضها قد وصل الى سواحل الهند •

واذا كان العثمانيون قد تمكنوا من وقف التوسع البرتغالى ، وتأمين البلدان العربية وخاصة فى حوض البحر المتوسط من عدوان الاسبان والبرتغاليين ، وفى حوض البحر الأحمر من عدوان البرتغاليين ، فانهم عجزوا فى النهاية عن تحقيق غايتهم الرئيسية وهى تحطيم المنافسة البرتغالية فى البحار الشرقية ، وشق طرق واسعة للتجار والملاحين العرب • ويرجع سبب اخفاق العثمانيين فى تحقيق تلك الغاية الى عجزهم عن تأليف العرب والمسلمين فى البحار الشرقية ليوحدوا قواهم جميعا لمكافحة السيطرة البرتغالية • ومن النتائج التى اسفر عنها اخفاق العثمانيين فى هذا السبيل انهم أهملوا قواعدهم فى الخليج العربى ، مما اتاح الفرصة للعرب هناك للاحتفاظ باستقلالهم بعض الوقت ، كما اتاح الفرصة للقوى الاجنبية الاخرى من التغلل فى هذه المناطق عندما حاولت أن تحل محل البرتغاليين فى البحار الشرقية •

وهكذا قام العثمانيون الطاهريين والمماليك بدورهم فى مواجهه غزو البرتغاليين الأستعمارى للبحار الشرقية وتحويلهم للتجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح بقدر ما سمحت ظروفهم وطاقاتهم ، حتى خبا نجم البرتغاليين هناك فى نهاية القرن السادس عشر • ويرجع السبب فى ذلك الى أن البرتغال فقدت استقلالها وضمت الى أسبانيا فى سنة ١٥٨٠ ، مما أدى الى تدهور قوة البرتغاليين على الرغم من أن ملوك اسبانيا ظلوا يرعون

مصالح الامبراطورية البرتغالية لفتره غير قصيرة [١٦٥] • كذلك اتصف البرتغاليون بالتعصب والقسوة فى معاملة شعوب المناطق التى سيطروا عليها ، كما أنهم لم يكترثوا بتنظيم التجارة مع تلك الشعوب [١٦٦] بل أن سياسة البرتغاليين كانت ترمى الى القهر العسكرى ثم استغلال الشعوب المقهورة فى الحصول على المواد الخام • كما أنهم اعتمدوا كليا على الرقيق والمرتزقة من الهنود وهو أمر لم يكن فى صالحهم نظرا لارتباط هؤلاء بأهالى البلاد الاصليين بطبيعة الحال مما جعلهم لا يتفانون فى الحفاظ على المصالح البرتغـــالية •

ومن أهم الاسباب التى أضعفت النظام الاستعمارى البرتغالى فى بلدان الشرق بوجه عام ، هو أن الملك كان يحتكر تجارة السلع المربحة فلم يترك مجالا للبرجوازية التى كانت اكثر نشاطا فى النظامين الهولنــدى والبريطانى • اذ أن تأسيس البرجوازيه للشركات الاحتــكارية كان يربط مصالح كثير من الافراد بحركه الاستعمار • هذا فصلا عن عدم وجود نظام دقيق فى البحرية البرتغاليه ، وتكرر حوادث التمرد والخلافات بين كبار الضباط • وسوف يعقب انهيار القوة البرتغالية ظهور قوى بحرية جديدة فى المحيط الهندى والخليج العربى والبحر الاحمر فى أواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر ، وتمثلت هــذه القــوى فى الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين ، وقد تميزت هذه القوى المنافسة بأنهاأكثرادراكا للمصالح التجارية [١٦٧] • فقد دخلت هولندا حلبة الصراع فى البحار الشرقية لتحقيق أهدافها الاستعمارية عندما أسست شركة الهند الشرقية الهولندية

---

(١٦٥) Fisher, H. A. L. : History of Europe, vol. I. p. 605

(١٦٦) Wilson, A. T. : Op. Cit., p. 122.

(١٦٧) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العــربى، ص ٢١ •

The Dutch East India Cmpany سنة ١٥٩٤ (١٦٨) ، ثم اعقبتها انجلترا التى أسست « شركة الهند الشرقية الانجليزية The East India Company (١٦٩) فى سنة ١٦٠٠ (١٧٠) بينما كانت قد أنشأت من قبل شركه الليفانت The Levant Company فى سنة ١٥٨١ ، التى كانت بها اختصصات سياسية وتجارية واسعة فى شرقى البحر المتوسط (١٧١) وكذلك أسست فرنسا « شركة الهند الشرقية الفرنسية Compagine des Indes فى سنة ١٦٦٤ والتى احتكرت نقل التجارة الفرنسية مع جزر الهند الشرقيه ومدغشقر عن طريق رأس الرجاء الصالح ، (١٧٢) مما أدى فى النهاية الى تحطيم الاحتكار البرتغالى لتجارة الشرق الذى استمر قرابة قرن من الزمان منذ أن وصلت السفن البرتغالية الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨ .

وجدير بالذكر أن الدولة العثمانية ظلت تحافظ على اغلاق البحر الاحمر فى وجه السفن الاوروبية طوال القرن السادس عشر وتعارض فى فتحه كطريق ملاحى حفاظا على أمنها وعلى سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز بعد أن اصبح السلطان العثمانى «حامى حمى الحرمين الشريفين » وهو أمر يعزز مكانته لدى العالم الاسلامى .وظل البحر الاحمر قاصرا على السفن العربية والعثمانية المحدودة لتمخر عبابه (١٧٣) . وبدا

---

(١٦٨) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ٢١ .

(١٦٩) Hoskins, H. L. : British Routes to India, pp. 4,5.

(١٧٠) Phillips, C. H. : The East India Company 1784 - 1834,p. 15

(١٧١) Epstein,M.: Op. Cit., p. 52.

(١٧٢) Hoskins, H. L. : The Growth of British Interest in the Route to India,,(J. O. F. H.), p. 169.

(١٧٣) Rabath E. : Mer Rouge et Golfe d'Aqaba dans L'evolution du Droit International, Societe Egyptienne de Droit International, Janvier, 1962., pp. 20,21.

أن الدولة العثمانية كانت تخشى حتى بعد زوال الخطر البرتغالى من فتح البحر الاحمر للتجارة الدولية الى ما سوف يترتب على ذلك من انتعاش مصر الاقتصادى مما يؤدى الى زيادة قوة المماليك ويشجعهم على الانفصال عن كيانها . كما كان السلطان العثمانى يرى أن الفوائد الجمركية التى يمكن أن تعود على مصر من هذا الطريق لا تفيد منها الدولة العثمانية شيئا ، بينما تزيد من قوة المماليك . بل أن الباب العالى كان يخشى أن يؤدى فتح هذا الطريق الملاحى الهام للسفن الأوربية الى زيادة النفوذ الأجنبى فى مصر بما يقطع الامل فى بقائها فى حظيرة السلطنة العثمانية .

على أن السلطان العثمانى فيما بعد ، لم يجد غضاضة فى السماح للسفن الأجنبية بنقل التجارة عبر البحر الاحمر حتى ميناء جده فقط ، ليشكل بذلك حصيلة للحجاز من العوائد الجمركية التى كانت تكفى لسد نفقات رعاية الحرمين ولا تحمل الدولة العثمانية من هذه النفقات فى وقت كانت تنوء فيه ميزانيتها بأعبائها الثقيلة . هذا بالاضافة الى أن الباب العالى كان يرى أن النشاط التجارى فى البحر الاحمر سوف يؤدى الى اضعاف التجارة فى الخليج العربى والعراق ، وهو الطريق الاخر الذى كانت تصل البضائع عبره الى موانى البحر المتوسط وفى عاصمة الدولة العثمانية نفسها ، بعد أن افل نجم البرتغاليين فى المحيط الهندى فى نهاية القرن السادس عشر . ولهذا فقد ظلت الدولة العثمانية [illegible] على تطبيق هذا المبدأ حتى نهاية القرن الثامن عشر ، مما جعلها تحتج بشدة لدى بريطانيا لوصول بعض سفنها الى السويس انذاك (١٧٤) [illegible] شركة الهند الشرقية

---

(١٧٤) عبد العزيز الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج١ ، ص ١٠–٢١ .

البريطانية تبذل جهودها بصفة دائمة لاحياء طريق التجارة القديم عبر البحر الاحمر ومصر والبحر المتوسط لنقل التجارة والمسافرين بين انجلترا والهند آنذاك ، حتى حصل الانجليز على اتفـاق مع على بك الكبير (١٧٦٩ — ١٧٧٣) بحقهم فى تجاوز جدة شمالا بمراكبهم الى السويس ، بعد أن كان محرما عليهم ذلك • [١٧٥] • وقد ظل الحال على ذلك فى عهد خلفه محمد بك أبى الذهب (١٧٧٣— ١٧٧٤م) وتابعهم الفرنسيون فى الحصول على مثل هذه الامتيازات بعد قليل [١٧٦] •

وعلى أية حال فقد شكل العثمانيون تغطية استراتيجية للحفاظ على أمن العالم الاسلامى فى مصر وعالم البحر المتوسط من جهة ، وفى منطقة البحر الاحمر التى تضم الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز من جهـة أخرى طوال القرن السادس عشر ، حتى أفل نجم البرتغاليين فى البحـار الشرقية فى نهاية القرن المذكور • وقد جاءت هذه التغطية الاستراتيجيـة العثمانية للمنطقة المذكورة فى وقت كانت تتعرض فيه لفراغ سـياسى واستراتيجى نتيجة لانقسام المماليك وفشلهم فى صد الغزو البرتغالى الذى كان يهدد المنطقة من جهة ، هذا فضلا عن انهيار الاوضاع الاقتصـادية لديهم من جهة أخرى • ويعد هذا الدور أكبر مكرمة للعثمانيين فى جـوهر علاقاتهم بأشقائهم المسلمين فى عالمى البحرين المتوسط والاحمر فى القرن السادس عشر ، كما يؤكد وحدة المنطقة فى مجـال التخطيط الاستراتيجى لقضية أمنها وسلامتها •

وفى ختام هذا البحث فانه يمكن القول بأن تحول التجارة العالميـة

---

(١٧٥) Aitchison, C. U.: A Collection of Treaties, Engagements and Sanads, relating to India and the Neighbouring Countries, Vol. XI, p. 123.

(١٧٦) Marston, T. E. : Op. Cit., pp. 31, 32.

الى طريق رأس الرجاء الصالح كان له أثرا واضحا فى مقدرات مصر وعالم البحر المتوسط اقتصاديا وسياسيا ودبلوماسيا واستراتيجيا أثناء القرن السادس عشر الميلادى بالقدر الذى أوضحناه على مدار هذا البحث • وقد تبينا أن الطرق البرية المؤدية الى مصر وعالم البحر المتوسط سواء من ناحية الشرق من العراق والشام والجزيرة العربية ، أو من ناحية الجنوب من أواسط القارة الأفريقية ، وخاصة من الصومال والحبشة والسودان وصعيد مصر ، أو من ناحية الغرب من أرجاء المغرب العربى من طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش ، فضلا عن النطاق الداخلى للبحر الاحمر حتى مضيق باب المندب ، والخليج العربى حتى مضيق هرمز ، قد مر عبرها قدر نسبى من التجارة العالمية • وقد ساعد على تنشيط حركة التجارة العالمية فى الطرق البرية والبحرية المشار اليها رحلة الحج السنوية الى الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ذهابا وعودة ، على الرغم من الحصار البرتغالى للمنافذ البحرية المؤدية للمحيط الهندى أثناء القرن السادس عشر الميلادى وتوضح الوثائق الملحقة بالبحث والمحفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية والتى تخص محكمة الاسكندرية الشرعية والعائدة الى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى [١٧٧] استمرارية

---

(١٧٧) أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، محكمة الاسكندرية الشرعية دفتر سجل مبايعات رقم (١) ويعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) الى ١٧ شعبان سنة ٩٥٨هـ — (١٥٥١م) ، ص ٢٤ مادة ١٠٩ ، ص ٣٦ مادة ١٦٦ ، ص ٣٨ مادة ١٧٥ ، ص ٤٨ مادة ٢١٧ ، ص ٥٥ مادة ١٤٦ ، ص ٩٩ مادة ٤٧١ ، ص ١٠٢ مادة ٢٨٤ ، ص ٢٠٧ مادة ٩١٨ ، ص ٢٣١ مادة ١٠١٦ ص ٣٢٧ مادة ١٣٩٢ ، ص ٣٢٨ مادة ١٣٩٥ ، ص ٣٣٩ مادة ١٤٣٧ ، ص ٤١٣ مادة ١٧٣٢ ، وهى وثائق تتعلق بنشاط التجارة المغاربة بالاسكندرية ولم يسبق نشرها ، وتمثل المجموعة الاولى الملحقة بالبحث ، ص ٩٢ مادة ٤٣٥ ، ص ٩٦ مادة ٤٥٦ ، ص ٦٠ مادة ٢٧٠ ، ص ١١٤ مادة ٥٤٠ ، ص ٣٢٨ مادة

النشاط التجارى النسبى فى مصر وعالم البحر المتوسط فى ذلك الحين غير أن هذا القدر من التجارة العالمية ، وهذا النشاط التجارى النسبى الذى شهده القرن السادس عشر ، لم يوفر لسكان مصر ولعالم البحر المتوسط نفس القدر من الازدهار الاقتصادى الذى عاشوا فى ظلاله الوارفة قبل تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

١٣٩٤ ، ص ٣٢٨ ، مادة ١٣٩٣ ، ص ٣٢٠ مادة ١٣٦٤ ، وهى وثائق تتعلق بالنشاط التجارى للجاليات الاوروبية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط فى مدينة الاسكندرية فى الفترة المذكورة ، وتمثل المجموعة الملحقة بالبحث .

الملاحـــــــق

(المجموعـــــة الوثائقية الاولى)

وثائق محفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية وتخص محكمة الاسكندرية الشرعية ولم يسبق نشرها وهى تثبت وجود نشاط تجـــارى نسبى كانت تقوم به الجالية المغربية بالاسكندرية فى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى ، فى الفترة (من ٢٤ شعبان سنة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) الى ١٧ شعبان سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م) •

(الوثيقـــــة رقـــم ١)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية

— دفتر سجل مبايعات رقـــم (١)

— عملية محكمة الاسكندرية الشرعية

— مـــادة رقم ١٠٩ صفحـــــة ٢٤ •

الحمد لله وبه اكتفى يوم الاثنين المبارك حادى عشر شهر رمضـــان المعظم قدره وحرمته سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •

— لدى سيدنا الحاكم الكتامى المالكى أيده الله تعالى •

— موضوع الوثيقة : تسليم شحنة متاجر كتان وقطن وأرز وعدس لاصحابها بالاسكندرية منقولة بواسطة سفينة يمتلكها مغربى •

أشهد عليه المعلم يوسف بن موسى اليهودى الربان العامل بالثغـــر شهوده الاشهاد الشرعى أنه تسلم من الرايس يوسف بن أبو سعيد بن نصر

العربى المغربى الاسفاقسى [١] ما كان مشحونا بمركبه باسم مولاى مسعود الجربى [٢] الامير ببلاد العدو المخذول وهو من الكتان تسع خيشات زنة ذلك ثلاثة آلاف رطلا وتسعماية رطل وخمسة وثلاثون رطلا وقطعتين قطن زنتها ماية رطل وثلاثة وتسعون رطلا وثلاثة غزاويات أرز وقفة عدس وماهو باسم الحاج محمد بن محمد المغربى النقطى عرف بابن أبو عكازين المفقود الان ببلاد النصارى قطعة قطن زنتها ثلث ماية رطلا واربعة وخمسون رطل وخيشة كتان زنتها أربعماية رطل وخمسة وثمانين رطل وما هو باسم جمعة بن عبد الله الاسود اللون قطعة قطن مايتا رطل واثنتان وما هو باسم أبا داود التركى ثلاث قطع تيل عجمى زنتها اربعين رطل وزنبيل التسلم الشرعى ووضع ذلك بحاصل بالديوان السعيد وأمهر عليه بمهر الحاكم الشرعى بالثغر حرر ذلك فى تاريخه .

(الوثيقة رقم ٢)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .

— دفتر سجل مبايعات رقم (١) .

— عملية محكمة اسكندرية الشرعية .

— من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) .

— الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) .

— موضوع الوثيقة : تاجران مغربيان يتقاضيان على دين بينهما .

---

(١) الاسفاقسى وصحتها الاصفاقصى نسبة الى مدينة صفاقص التونسية الواقعة على الساحل الشرقى لتونس المطل على البحر المتوسط .

(٢) الجربى نسبة الى جزيرة جربة الواقعة فى مواجهة الساحل الجنوبى الشرقى لتونس المطل على البحر المتوسط .

— مادة رقم ١٦٦ ص ٣٦ ٠

— يوم الاحد المبارك سابع عشر رمضان المعظم قدره (٩٥٧هـ — ١٥٥١م) وفيه لديه أحسن الله اليه ٠

ادعى الزينى عبد اللطيف بن ابراهيم بن عبد الله المغربى الاقليبى[٣] على الشمسى محمد الحاج عياد بن سليمان المغربى الطرابلسى أنه يستحق فى ذمته مبلغا قدره من الذهب السلطانى الجديد مغاملة تاريخية أربعة وثلاثون دينارا [٤] عن ثلاثة محادر كتان دفع ذلك له ليوصله لامين الدين بن شمس الدين بن زين الدين بن عبد الوهاب الشهير بابن خالد المصرى الطولونى وأنه لم يوصل ذلك اليه وادعى على المدعى عليه بذلك بمحكمة السادة المالكية بالصالحية النجمية بالديار المصرية وضمنه له الحاج أبو عبد الله الباجورى والشمسى محمد الصباغ والحاج عمر الخانى والحاج ابراهيم النشيلى الى أن يحضر ما يخلصه من ذلك ويطالبه بذلك ويسأل سؤاله عنه قبل فأجاب بالاعتراف فى ذلك وادعى أنه دفع ذلك للزينى أمين الدين المذكور مما كان له من جملة ما كان له تحت يده من ديون ومعاملات وتركات وحوالات [٥] وغير ذلك مما هو معلوم عندهما شرعا ولم يصدقه المدعى

---

(٣) الاقليبى نسبة الى مدينة قليبية التونسية الساحلية الواقعة فى أقصى الساحل الشمالى الشرقى لتونس المطل على البحر المتوسط ٠

(٤) الدينار : كلمة مشتقة من اللفظ اللاتينى Denarius Aureus وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند الرومان . وقد عرف العرب هذه العملة الذهبية وتعاملوا بها قبل الاسلام وبعده . ويقول المقريزى انه يزن مثقالا من الذهب . والوزن الشرعى له هو ٢٥ر٤ جرام وما زال لفظ الدينار يطلق على العملة الاساسية فى كثير من البلاد حتى الان ، وان كان لا يعنى بالضرورة العملة الذهبية (حسن محمود الشافعى ، العملة وتاريخها ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٨٣) ٠

(٥) حوالة : بمعنى تحويل قبض المبالغ ، وترد فى الوثائق بمعنى الشخص المحول اليه تحصيل مبالغ وضرائب نقدية أو عينية . (ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤٤٥) ٠

على ذلك وطولب للمدعى عليه بالبيان على ذلك فابرز من يده حجة مكيليه بالمحكمة المشار اليها لدى سيدنا الحاكم المشار اليه متضمنة لتصادق الزينى أمين الدين والحاج شمس الدين للمدعى عليه على أن آخر ما استحقه الزينى أمين الدين المذكور فى ذمة الحاج شمس الدين المدعى عليه من ديون ومعاملات وحوالات وغير ذلك مما هو معلوم عندهما شرعا مبلغا قدره من الفضة السليمانية ستة آلاف نصف [٦] للمدعى على ذلك وأقر له بعدم الاستحقاق من الجانبين ثابتة محكوم بها لدى سيدنا الحاكم المشار اليه أحسن الله اليه وذكر أن القدر المدعى به من داخل الحجة المذكورة ولم يصدق المدعى على ذلك وطولب المدعى عليه بالبيان على ذلك فأحضر كل من الحاج ميلاد بن المرحوم الزينى قاسم بن محمد الغيلوط المغربى الطرابلسى والشمس محمد عبد الجبار بن محمد المغربى الاسفاقسى والنورى على بن المرحوم خليفة بن محمد المعروف بجده والزينى عطيه ابن النورى بن عبد الرحمن المغربى المصمودى وسألهم للاشهاد له بما يعلمون من ذلك فأدوا شهادتهم لدى سيدنا الحاكم المشار اليه بأن القدر المدعى به عن الثلاثة خيش الكتان داخل فى التصادق والابرام المشروح ذلك أعلاه فحينئذ سأل المدعى سيدنا الحاكم المشار اليه بثبوت ذلك والحكم له به الثبوت الشرعى وحكم الله تعالى احكامه بموجب ما ثبت لديه حكما صحيحا شرعيا

---

(٦) نصف فضة نقد تركى عثمانى ، ضرب أولا من الفضة بقيمة قدرها أربع أقجات « أخشا » وسرعان ما اختلف مركز « الاخشا » باعتبارها الوحدة النقدية التركية العثمانية الصغرى حتى أصبحت الفضة تساوى ١ : ٤٠ من القرش ، بوزن قدره ست عشرة قمحة أى ١١ر١ جرام ، ثم انخفض وزنها الى ربع ذلك فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، وقل ما فيها من فضة . ويرادفه اسم البارة والفضة فى عصر الجبرتى اسم « نصف فضة » ، و « مؤيدى » ، وقد كانت هذه العملة وسيلة هامة لتحقيق مرونة العمليات التجارية فى مصر (عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، فى كتاب عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ، ص٥٧٣).

تاما معتبرا مرضيا مسيولا فى ذلك مستوفيا شرائطه الشرعية وواجباته المحررة المرعية واعتبار ما يجب اعتباره شرعا مقضيا كل ذى حجة صحيحة على حجته ان كانت مع العلم بالخلاف فى ذلك وشهد على نفسه الكريمة بذلك وبه شهد فى تاريخه • شهود الحـــال •

(الوثيقـــة رقـــم ٣)

ــ أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

ــ دفتر سجل مبايعات رقـــم (١) •

ــ محكمة اسكندرية الشرعيـــة •

ــ من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ ــ ١٥٥٠م) •

ــ الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ ــ ١٥٥١م) •

ــ يوم الاثنين المبارك ثامن عشر رمضان المعظم ســنة (٩٥٧ ــ ١٥٥٠م) •

ــ وفيه لدى مولانا أفندى دامت فضايلة •

ــ مادة رقـــم ١٧٥ ص ٣٨ •

ــ موضوع الوثيقة : تاجر مغربى يقاضى رجلا آخر حول دين بينهما •

ادعى الحاج أحمد الحاج رمضان بن أحمد المغـــربى التونسى على يوسف بن عبد الله المهتدى من أهل الغلطة أنه يستحق فى ذمته مبلغا قدره من الذهب السلطانى الجديد سبعون دينارا دفع ذلك له بجزيرة جربا ليفتدى بها نفسه من الاسر ويطالبه بذلك ويسال سؤاله قبل فأجـــاب بالاعتراف فى ثمانية وثلاثين دينارا ذهب مشحر وانه دفع له ثلاثة خواتم ذهب وزوج حلق ذهب ولولو ولم يصدق المدعى على ذلك وطولب كـل منهما بالبيان فذكر المدعى أن بيده ورقة بخط النصارى والمسلمين وذكر المدعا عليه والتمس عنه على ذلك فطلب المدعى من المدعا عليه ما اعترف به

وهو ثلاثون دينارا وأوقف الثمانيةدنانيرعلى الحلف أو الاقامة واعتقل على وذلك بسجن الشرع الشريف •

شـــــهود الحـــــال •

(الوثيقــة رقــم ٤)

ــ أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

ــ دفتر سجل مبايعات رقــم (١) •

ــ عملية محكمة اسكندرية الشرعيـــة •

ــ من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ ــ ١٥٥٠م) •

ــ الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ ــ ١٥٥١م) •

ــ مـــادة رقــم ٢١٧ ص ٤٨ •

الحمد لله الواحد القهار يوم الاحد المبارك الرابع والعشرين مــن شهر رمضان المعظم (٩٥٧هـ ــ ١٥٥٠م) •

ــ موضوع الوثيقة : اتفاق بين تاجرين من المغاربة بشأن تجــارة الـــــكتان •

اشهد عليه الحاج شهاب الدين أحمد الحاج سعيد بن الشهابى أحمد الشهير بالكلابى المغربى التونسى شهوده الاشهاد الشرعى أنه وصل اليه من الحاج محمد بن الحاج محمد سعيد الشهير بابن الغراب المغــــربى الاسفاقسى عشرين خيشة كتان زنة ذلك ما قدره من القناطير [(٧)] المصرية

(٧) القنطار : وحدة من وحدات الوزن ، وكان حجمه يختلف تبعا للزمان ، وكذلك المكان الذى كان يستخدم فيه عملية الوزن . وفى أواخر العصر المملوكى كان يتراوح وزن القنطار ما بين ٤٥ر٩٦ كيلو جرام ، وفى سنة ١٦٦٥م وصــل وزنه الى ١٢٠ كيلو جرام .

Shaw, S,: Ottoman Egypt in the Age of the French Revo ution,p. 170.

ثمانية وسبعون قنطارا ونصف قنطار ونصف قنطار نفسا على الجـــــادة الوصول الشرعى بالقبض الشرعى واذنه أن يسافر بذلك بمركب باب اغلى موسى الى مدينة اسطنبول ويبيع ذلك هناك بالنقد ومهما أطلعه الله تعالى فى ذلك من ربح ويسره من فائدة بعد اخراج رأس المال والمون والكلف والاجر وحق الله تعالى ان وجب كان مقسوم بينهما نصفين بالسوية لامزيـــة لاحدهما على الاخر وعلى الحاج احمد المذكور العمل فى ذلك بتقوى الله تعالى وطاعته فى سره وعلانيته وتوافقا على أن الحاج احمد المذكور لايتوجه سوى لمدينة اسطنبول ويعود منها الى الثغر السكندرى مع ســـلامة الله تعالى حسبما تصادقا على ذلك التصادق الشرعى فشهد عليهما بذلك فى تاريخـــه .

شـــــهود الحـــال

(الوثيقـــــة رقـــم ٥)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .

— دفتر سجل مبايعات رقم (١) .

— عملية محكمة اسكندرية الشرعية .

— من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) .

— الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) .

— فى يوم الخميس المبارك ثامن عشرين رمضان سنة تاريخه (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) .

— وفيه لديه احسن الله اليه .

— مـــادة رقم ٢٤٦ ص ٥٥ .

ــ موضوع الوثيقة : اتفاق بين تاجر أندلسى وعامل رشيدى حول استئجاره لقلفطة مركبة الشراعى .

ادعى على بن محمد على الاندلسى على المعلم على بن محمد الفقيه على الجلفاط الرشيدى أنه استأجره على جلفطه [٨] مركبة الغليون [٩] باللف وهو ومن يستعين به وأنه عمل عنده فيه خمسة وتسعون يوما هــو وصناعة تسعة أنفار مو ايمه له بمفرده فى كل يوم بسبعه أنصاف وثمــان صناع كل صانع بستة أنصاف كل يوم وصبى بنصفين كل يوم وأنه دفــع له أجرته وأجرة صناعه عن المدة المذكورة ماعدى ثمانية وعشرين نصــفا وسأل سوءاله عن ذلك قبل فأجاب بأن وصل اليه ستة عشر دينارا ذهبا من ذلك ثمانية دنانير أكرونه ودينار قايبيى وخمسة دنانير ذهب بنادقة [١٠] على

---

(٨) كلمة جلفطة صحتها قلفطة وتعنى القيام بحشو الكتان المبلل بالقطران او الشمع ووضعه بين الواح السفن وذلك لمنع تسرب المياه الى داخل السفينة ويعرف القائمون بهذه العملية بالقلافطة . (ســعاد ماهر : البحــرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧ ؛ ص ١٧١) .

(٩) المركب الغليون : يجمع على : غلايين وغلاوين . والكلمة مصرية عن الاسبانية Galeon وقد وصــفه « دوزى » بأنه نوع من المــراكب عالى الاطراف ، واكتفى يحيى الشهابى « عند التعريف به بأنه قال » ضرب من المراكب الشراعية الاسبانية وتصفه المعاجم الانجليزية والفرنسية بانه مــركب اسبانى ضخم يمتاز بعظم المقدم والمؤخر ، كان يستعمل فى الغالب لحمل كنوز مناجــم بيرو والمكسيك الى اسبانيا وذكره « الادهمى الطرابلسى » فقال : « فــلم نزل والغليون بنا يسير حتى رسينا بمينة حيفا بعد خمسة ايام » ، فهو على هــذا كان يستعمل لنقل المسافرين أيضا . وقد وقع اللفظ فى حكايات « الف ليلة وليلة» كنوع من المراكب التى تستعمل فى القتال وفى نقــل المســافرين . (درويــش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم . دار المعارف ؛ الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، ص ١١٢ — ١١٣) .

(١٠) البندقى : نقد ذهب . ذو عيار عال يقرب من أربعة وعشرين قيراطا ، وهو ينسب الى مدينة البندقية التى بدأت فى ضربه حوالى سنة ١٢٥٢ ، فى وقت كانت نقود المماليك من الدنانير الذهب قد بدأت تفقد سمعتها العالمية ، بسبب

يد صانع جعيدي دينارا واحدا والدينار فضة معه ومع جماعته .وخمسة أنصاف وان من ذلك ستة دنانير من مونته هو وصناعه وباقى ذلك من أجرته وأجرة صناعة أشهد عليه كل من المدعى والمدعا عليه أنه لا يستحق على الاخر لسبب ذلك حقا مطلقا ولاشىء من ذلك وأن المدعا عليه وصل الى أجرته وأجرة صناعة ولم يتأخر لكل منهما قبل الاخر حقا مطلقا وبه شهده شهود الحـــــال •

(الوثيقـــة رقـــم ٦)

ـ دفتر سجل مبايعات رقـــم (١) •

ـ عملية محكمة اسكندرية الشرعية •

ـ من ٢٤ شعبان (٩٥٧هـ ـ ١٥٥٠م) •

ـ الى ١٧ شعبان سنة(٩٥٨ ـ ١٥٥١م) •

ـ يوم الجمعة ٢٧ شوال سنة (٩٥٧هـ ـ ١٥٥٠م) •

ـ مادة رقم ٤٧١ ص ٩٩ •

ـ موضوع الوثيقة : استئجار عامل للعمـــل على مركب تبحـــر من الاسكندرية الى فزان •

عدم العناية بنقوشها مع خفض عيارها وتقارب اوزانها مما دفع شعوب الشرق وسلاطين المماليك الجراكسة الاقبال على التعامل بالبندقى ، أو الدوكات ، واطلق المؤرخون على هذا النوع من النقود اسم المشخصة للصور الادميـــة المنقوشـــة عليه ، ومن بينها صور القديسين وصور دوج البندقية الذى نسب اليه النقد دوكات ويشير المقريزى الى أنه منذ سنة ٨١٠ هـ كثر تداول الدوكات فى مصر ، وتمتعت بسعر قانونى حتى أن جمرك اسكندرية اصر على أن يدفع التجار الاوروبيون قيمة البضائع السلطانية بالسبائك الذهبية او البندقى ، ومعنى هذا أن البندقى قد شاع تداوله فى اسواق مصر متمتعا بثقة كبيرة فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ،وماجاء العصر العثمانى الا وكان البندقى قد تغلـــغل كوسيط للمبادلة فى كل اقليم مصر . (عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة ايام الجبرتى ، فى كتاب عبد الرحمن الجبرتى دراسات وبحوث ، القاهرة ، ١٩٧٦، ص ٥٧٧) .

ادعى درديـر بن عمر بن دياب السليمانى على الحاج على بن محمد ابوا عبد الله النزايلى الحرام أن أبو جازية استأجره من ثغر اسكندرية الى فزان بخمسية دنانير ذهبا سلطانيا جديدا وأنه توجه صحبته الى القرب من فزان بنحو خمسة عشر يوما فمات أبوا جازية فاستمر على موجوده الى أن أوصله الى شركايه بفزان وأن شراكاه وصلوا موجوده الى المدعى عليه ويطالبه بأجرته من موجوده ويسيل سواله عن ذلك فسيل فأجـاب بالانكار فطلب من المدعى البيان على ذلك فذكر أن له بينة يحضرها عند تاريخـــه •

(الوثيقـــة رقـم ٧)

ــ أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

ــ دفتر سجل مبايعات رقم (١) •

ــ عملية محكمة اسكندرية الشرعية •

ــ من ١٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ ــ ١٥٥٠م) •

ــ الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ ــ ١٥٥١م) •

ــ ٢٩ شوال سنة (٩٥٧هـ ــ ١٥٥٠م) •

ــ مـادة رقم ٤٨٤ ص ١٠٢ •

ــ موضوع الوثيقة : مغربى يبيع عبدا بستة عشر دينارا بالاسكندرية

ادعى أحمد الحاج عمر بن الحاج عمر عرف بالجاموس على الشهابى أحمد محمد أبو الكرم المغربى التونسى المعروف بشيخ الزاوية أنه سلمه عبدا أسود ليبيعه له من مدة أربعة أيام تقدمت على تاريخه ويطالبه بالعبد المذكور ويسال سواله عنه فسيل فاجاب بالاعتراف فى ذلك وأنه أذنه فى بيعه

بستة عشر دينارا وأنه باعه بذلك ولم يصدقه المدعى على ذلك وطولب المدعى عليه بالبيان عن ذلك فذكر أن لا بينة له والتمس عنه على ذلك محلف والزم بدفع العبد المذكور •

(الوثيقــــة رقــم ٨)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

— دفتر سجل مبايعات رقـــم (١) •

— عملية محكمة اسكندرية الشرعية •

— من ١٤ شعبان سنة (٩٥٧ — ١٥٥٠م) •

— الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ — ١٥٥١م) •

— يوم الثلاثاء ١٩محرم سنة (٩٥٨ — ١٥٥١م) •

— مـــادة رقـــم ١٨ ٩ ص ٢٠٧ •

— موضوع الوثيقة : تاجر رشيدى يتقاضى مع تاجر مغربى حول مبلغ من المال بينهما •

ادعى مساعد بن سليمان بن عينوس الرشيدى علىَ الرايس على بن محمد عبد العزيز المغربى الجربى عرف اللجيمى أنه يستحق عليه من الذهب المشحر ستة وعشرون دينارا حصته التى خصته معه فى سفرة من الثغــر السكندرى الى جزيرة جربا اسوة امثاله من الريسا ويطالبه بذلك ويسأل سواله فسيل فأجاب بأن حصته سبع دنانير وربع دينار وأنه دفع له ذلك وزيادة ثلاثة أرباع دينار وأنكر ماعدى ذلك وطولب الدعى بالبيان على ذلك فذكر أن له بينه لتشهد على اقراره بأنه طالبه بحصته فقال له عندى تسع دنانير دفعها له بالثغر السكندرى وخرج ليحضرها ثم وقف بينهما متوسط صلح أصلح بينهما على أن كل منهما لا يستحق على الاخر بسبب هذه الدعـــوى

ولا غيرها حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا دعوى ولا طلبا بوجه ولا سبب ولافضة ولاذهب ولاأجر ولاثمنا ولا مثمنا ولا قبضا ولاأقباضاولاقرضاولا اقتراضا ولا موهوما ولا وديعة ولا عادية ولاما تصح به الدعوى ولاما تعامر به البينه ولا من قل ولا جل عما مضى من الزمان والى تاريخه وان الرايس مساعد المذكور لا يستحق فى الدفع الكبير الذى بالمركب المشترك بين الرايس مساعد وبين ورثة الحاج محمد بركات حقا مطلقا والتـزم الرايس على أنه متى قام صالح بن أحمد الجربى اللجيمى مطالبا الرايس مساعد المذكور بحق مالى نشا سببه عن مارمى له بالبحر من الفرغ وثبت ذلك عليه بطريقة الشرعى والزم بدفعه فدفعه كان على الريس غلى المذكور القيام له بذلك من ماله وقبلت حالة بالغا ما بلغ الزاما شرعيا خاليا عن العوض والشرط المفسد لذلك مقرا على أنه وقدرته على ما التزمه وقبل منه ذلك الرايس مساعد القبول الشرعى وتصادقا على ذلك التصـادق الشرعى فشهد عليهما بذلك وبالتوكيل فى ثبوته وطلب الحكم به توكيلا شرعيا فى تاريخه شهود الحـال •

(الوثيقـة رقـم ٩)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

— دفتر سجل مبايعات رقـم (١) •

— عملية محكمة اسكندريةالشرعية •

— من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •

— الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) •

— يوم الاحد ١٩ صفر الخير سنة (٩٥٨ — ١٥٥١م) •

— مـادة رقم ١٠١٦ ص ٢٣١ •

— موضوع الوثيقة : زواج مصرى بابنة مغربى بالاسكندرية •

تزوج سالم بن خضر بن شحاته الدمنهورى المعروف بابن هـــاجر بمخطوبته سليمه البكر البالغ ابنة على بن يحيى المغربى الجربى على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصداق جملته من الذهب السلطانى الجديد سبعة دنانير ومن الفضة الجديدة السليمانية مايتا نصف ببيان الحال من من ذلك مبلغ الذهب أعترف والد الزوجة المذكور بقبضه وذلك خمسة دنانير الاثمانية عشر نصفا والباقى على حكمه والباقى مبلغ الفضة مقسط لهـا عليه فى مدة عشرين سنة قسط كل سنة فى سلخها عشرة انصاف الى الوفا ان شاالله تعال زوجها منه بذلك والدها المذكور بعد الوضوح الشـرعى بشهادة كل من محمد منصور بن يفلح الجربى وعمر بن سليمان بن صالح الجربى تزويجا شرعيا وقبله الزوج المذكور لنفسه القبول الشرعى وتوافق للزوج المذكور أن يكسوا زوجته المذكورة كسوة للشتا وكسوة للصيف ورضى لها والدها المذكور بذلك وبه شهد فى تاريخه • شهود الحال •

(الوثيقـــة رقـم ١٠)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

— دفتر سجل مبايعات رقم (١) •

— عملية محكمة اسكندرية الشرعية •

— من ٢٤ شعبان (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •

— الى ١٧ شعبان (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) •

— يوم الجمعة المبارك ١٠ ربيع الثانى سنة (٩٥٨ — ١٥٥١م) •

— مادة رقـم ١٣٩٢ ص ٣٢٧ •

— موضوع الوثيقة : مغربى يثبت حقه فى حلى فضية لدى صـائغ يهـــودى •

ادعى جمعه بن منصور بن عبد الله المغربى الجربى رايس قـــلاع مركب الرايس سليمان ان كان معه تحكية فضة زنتها عشرون درهما [١١] وقعت منه بباب البحر منذ شهر مقدم على تاريخه وأنه وجدها بيد غلانم بن عبد الله بن محمد الدلال المعروف بشعت يبيعها بسوق باب البحـر يوم تاريخه ويسال سواله عن ذلك فسيل فأجاب بأنه شميله اليهودى الصايغ دفعها له وطولب المدعى بالبيان على ذلك فأحضر يحيى بن يونس بن سالم المغربى الجرابى — عبد الرحمن بن محمد بن عيسى المغربى الجربى وسألهما للاشهاد له بما يعلماه فى ذلك فاديا شهادتهما بأن التحكية المذكورة جارية فى ملك المدعى المذكور الى تاريخه وأنها ضاعت منه من المدة المذكورة •

(الوثيقـــــة رقـــم ١١)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

— دفتر عمليات رقم (١) •

— عملية محكمة اسكندرية الشرعية •

— من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •

— الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) • ؟

— يوم الجمعة ١٠ ربيع الثانى (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) •

— مادة رقم ١٣٩٥ ص ٣٢٨ •

---

(١١) الدرهـــم : وحده من وحدات السكة الاسلامية الفضية . وهو مشتق من اسم الدراخمة اليونانية ؛ وقد استعاره العرب فى المعاملات من الفرس اذ كانت الاقاليم الشرقية من العالم الاسلامى تتعامل بالدراهم الفضيـــة عند الفتح العربى لها ، ويزن الدرهم ١٥ قيراطا ، والقيراط اربع حبات والحبة واحدة الحب وتعنى بذور الشعير . ويبلغ وزنه الشرعى ٢ر٩٧ جرامـــا . ولازالت بعض البلاد العربية تستعمل الدرهم كعملة اساسية الى اليوم وان كانت دراهم غير فضية (حسن محمود الشافعى ؛ العملة وتاريخها ص ٨٤) .

— وفيه لدى سيدنا الشيخ شمس الدين الكتامى المالكى أيده الله تعـــــالى •

— موضوع الوثيقة : مغربى يبيع حمارا بدينارين ذهبا أوكرونيا •

ادعى سعيد بن يحيى بن عبد الله المغربى الجبالى على المعلم فخــر الدين ابن الحاج أبو الخير الكتانى أنه وضع يده له على حمار أشهب بغير طريق شرعى مدة سبعة أشهر ويطالبه بذلك ويسال سواله عنه فسيل فأجاب بأنه باعه الحمار المذكور بدينارين ذهبا اكرونيا ولم يصدقه على ذلك وطولب المدعا عليه بالبيان فأحضر الحاج محمد بن عبد الله من أهل ســتهور • المعروف بابن فارس وساله للاشهاد له بما فى ذلك فادى شهادته بأنه ابتاع منه الحمار المذكور بالدينارين المذكوره وصدقه على ذلك واقبضه الدينارين المذكورة وخرجا على ذلك حرر ذلك فى تاريخه شهود الحـــــال •

(الوثيقـــــة رقـــم ١٢)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

— دفتر سجل مبايعات رقـــــم (١) •

— عملية محكمة اسكندرية الشرعيـــة •

— من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠) •

— الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) •

— يوم الجمعة المبارك ١٧ ربيع الثانى سنة ٩٥٨هـ — ١٥٥١م •

— مـــادة رقم ١٤٣٧ ص ٣٣٩ •

— موضوع الوثيقة : اتفاق بين جزائرى ويهودى على تشغيل مركب للسفر الى المغرب •

تصادق الرايس اسماعيل بن سليمان بن ناصر الشهير بابن بـــلال الجزايرلى والمعلم اسحاق ابن اسرائيل بن يحيى اليهودى الزبان الوكيل

الشرعى عن المعلم ابراهيم كاستروا العامل بالثغر كان مصادقة شرعية عرف معناها وما يترتب عليها شرعا على أن جميع المركب الغليون المكمل بالعدد والمدافع دلالة مجارى الريح على العادة المعلوم عندهما شرعا بين الرايس اسماعيل والمعلم يهود الموكل المذكور اثلاثا ماهو للرايس اسماعيل الثلث وما هو للمعلم يهود الموكل المذكور ثلثان وأن جميع ما صرف على المركب المذكور الى تاريخه صرف من مال كل منهما لم يتأخر لاحد منهما قبل الاخر بسبب ذلك ولا بسبب القومانية [١٢] التى صرفت برسم السفر الى بلاد المغرب وقدرها ألف نصف ببيان واربعمائة نصف وخمسة وستون نصفا حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا شي قل ولا جل لما مضى من الزمان والى تاريخه وان المعلم يعقوب بن اسحاق بن موسى عرف بابن مشهيله اليهودى الربان وكيلاعلىحصةالمعلم لهودالمذكوروقبضماينوبهمن الاجرةوالقومانية على جارى العادة وان لا يفعل أحد من الرايس اسماعيل والوكيل المذكور الا بمعرفة الاخر وأقر الرايس اسماعيل المذكور الاقرار الشرعى ان فى ذمته للمعلم يهود المذكور بعد كل حساب من الذهب السلطانى الجديد مايتا دينار ثنتان وخمسة وسبعون دينارا وأنه دفع من ذلك عن المعلم يهود المذكور بجزيرة جربا من مماليك وجوار من الذهب المشحرماية دينار واحده وثلاثة دنانير تاخر عليه باقى ذلك حسبما تصادقا على ذلك التصادق الشرعىفشهد عليهما بذلك فى تاريخه شهود الحال •

(الوثيقة رقم ١٣)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •
— دفتر سجل مبايعات رقم (١) •

---

(١٢) القومانية : تموين يعد لحجاج بيت الله الحرام من غلال وبقسماط ودقيق وغير ذلك •

— عملية محكمة اسكندرية الشرعية .

— من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) .

— الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) .

— يوم الاثنين ١٣ جماد الثانى سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) .

— مـــادة رقم ١٧٣٢ ص ٤١٣ .

— موضوع الوثيقة : تأجير وكالة بسوق باب البحر بالاسكندرية لاحد التجار المغاربة .

أجر الناصرى محمد المـرحوم الجناب العالى البهيرى حسـن بن المرحوم الجناب العالى الامير سنان بك أمير اللوا السلطانى بالثغر كـان تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان الحاج أحمد محمد ابو الكرم المغربى التونسى المعروف بشيخ الزاوية ماذكر أنه جار فى استحقاقه وتحت نظـره وله ايجاره وقبض اجرته بالطريق الشرعى وصدقه على ذلك المسـتأجر المذكور التصديق الشرعى وذلك جميع الوكالة الكبرى الكامنة داخل الثغر بسوق باب البحر المعروفة بوكالة جد الموخر للمذكور المشتملة على حواصل سفلية وعلوية عدتها ستة وخمسون حاصلا وخمسة حـوانيت مستخرجة من الوكالة المذكورة الموجرة على المستأجر المذكور مدة سابقة على تاريخه آخرها سلخ شهر تاريخه المعلوم ذلك عندهما العلم الشرعى النافى للجهـالة باعترافهما بذلك اجارة شرعية لينتفع المستأجر المذكور الانتفاع الشرعى كيف شاعلى الوجه الشرعى لمدة ثلاث سنوات مستقبلات تلى مدة تواجره أولها شهر رجب الاتى بعد دفعة شهر تاريخه باجره مبلغها عن ذلك من الفضة الجديدة السليمانية معاملة تاريخه بالديار المصرية ثمانية آلاف نصـف واربعمائة نصف يقوم له باجره كل سنة على ثلاثة أقساط متساوية فى المدة والاجرة ماهى للموجر المذكور الثلثان وما هو لأخته شقيقته تاج الملوك

المرأة الثلث مقرا على قدرته على ذلك على حكم واعترف المستاجر المذكور أنه مستمر وضع يده على الوكالة المذكوره الاستمرار الشرعى بتصادقهـا على ذلك واعترف الموجر المذكور بقبضه من المستأجر المذكور من الاجرة المذكورة معجلا ستماية نصف وخمسة عشر نصفا حسبما اعتاض فى ذلك من الذهب السلطانى الجديد خمسة عشر دينارا القبض الشرعى وتصـادقا على ذلك ووكلا فى الدعوى به وثبوته وطلب الحكم به التوكيل الشرعى فشهد عليهما بذلك فى تاريخه • شهود الحـال •

(المجموعة الوثائقية الثانية)

وثائق محفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية وتخص محكمة الاسكندرية الشرعية ولم يسبق نشرها وهى تثبت وجود نشاط تجارى نسبى كانت تقوم به الجاليات الاوروبية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط بالاسكندرية فى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى ، فى الفترة من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) الى ١٧ شعبان سـنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) •

(الوثيقـــة رقـم ١٤)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

— دفتر سجل مبايعات رقـــم (١) •

— عملية محكمة اسكندرية الشرعيـة •

— من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •

— الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١) •

— يوم السبت ٢١ من شوال سنة (٩٥٧ — ١٥٥٠م) •

— لدى سيدنا الشيخ شمس الدين الكتامى المالكى أيده الله تعالى •

— مـــادة رقـــم ٤٣٥ ص ٩٢ •

— موضوع الوثيقة : تاجر مصرى يشترى كمية من العسل من تاجر قبرصى •

ادعى الحاج أبو الخير بن محمد على عـرف بابن عويـدات الزيات بالثغر على نقولا بن جرجى الفرنجى القبرصى أنه ابتاع منه ثمانية عشر درف عسل نحل زنة ذلك عشرة قناطير زايد ناقص بخمسين دينارا ذهبا وأنه بعد صدور البيع منه باع ذلك لشخص آخر ويطالبه بذلك ويسـال سواله عنه فسيل فأجاب بالانكار وطلب من المدعى البيان على ذلك وأحضر الحاج أحمد بن محمد ومحمد بن أحمد ناصر الدين الفراج وسالهما للاشهاد له بما يعلماه فى ذلك فاديا شهادتهما طبق الدعوى وألزم المدعى عليه بدفع العسل وألزم المدعى بدفع الثمن وخرجا على ذلك شهود الحـال •

(الوثيقـــة رقـم ١٥)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

— دفتر سجل مبايعات رقـــم (١) •

— عملية محكمة اسكندرية الشرعية •

— من ١٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •

— الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) •

— يوم الثلاثاء ٢٤ شهر شوال سنة ٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •

— مـــادة رقم ٤٥٦ ص ٩٦ •

— لدى مولانا افندى دامت فضايله •

— موضوع الوثيقة : تاجر مصرى يبيع بهار وقرنفل وزنجبيل وجوزة طيب وقرفه لتاجر قبرصى •

تصادق الخواجا شمس الدين محمد السعودى المصرى وجوان ابن كبيل الفرنجى الكتيلان على صحة العقد الصالحة بينهما فى تاسع شهر تاريخه على أن على الخواجا شمس الدين المذكور مرجان أربع صناديق ويسترد نصف الكوم الذى بالحاصل معاوضة ذلك الثلث زنجبيل شرقى والثلث قرنفل وأربعة قراريط جوزة طيب واربعة قراريط قرفة سعر كل أربع قناطير وربع من البهار المذكور وقنطار مرجان قصف وكل قنطارين وربع من البهار بقنطار بسترد وكل قنطار ونصف زنجبيل بقنطار من الثلاثة اصناف البهار والقرنفل ان عجب الفرنجى أخذه وان ما حجبه عمل منه الصاج وتوافقاً على أن الخواجا شمس الدين يدفع البهار المذكور قبل مضى ثلاثين يوما ومتى مضت الثلاثين يوما ولم يدفع ذلك كان يشترى كل قنطار بماية دينار ويدفع للنصرانى ذلك وان يدفع له من باطن البهار المذكور خمسة وستون رطلا من العود كل رطل بثلاثة دنانير ونصف دينار حسبما توافقا وتراضيا على ذلك كله التراضى الشرعى وذلك بحضور سيدنا الشيخ زين الدين بركات بن فتح الدين الحنفى والخواجا أبو الغيث والخواجا نور الدين القباقبى والحضرة السامية المعلم يوسف بن المعلم موسى بن اسحاق اليهودى الربان العامل بالثغر وكلتا دموا قنصل طايفة الفرانسة والكتيلان بالثغر جرى ذلك كذلك شهود الحال .

* * *

(الوثيقـــة رقـــم ١٦)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .

— دفتر سجل مبايعـــات رقم (١) .

— عملية محكمة اسكندرية الشرعيـــة .

— من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) .

ـ الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ ــ ١٥٥١م) •

ــ يوم الثلاثاء ٢٩ من شهر شوال عام سبعة وخمسين وتسعماية •

ــ مــادة رقـم ٢٧٠ ص ٦٠ •

ــ موضوع الوثيقة : اتفاق بين ربان يهودى وقنصل طائفة الفرنسيين في الاسكندرية حول قرض بينهما وتجارة للكتان •

اشهد عليه المعلم داحمين بن خليفة بن مسعود اليهودى الريان عــرف بالكزار شهوده الاشهاد الشرعى أنه قبض وتسلم من كلتا دموا النصرانى الفرنجى قنصل طايفة الفرنج الفرانسة والكتيلان بالثغر مبلغا قدره من الذهب السلطانى الجديد معاملة تاريخه بالديار المصرية اربعماية دينـار وأربعة عشر دينار القبض والتسلم الشرعيين وذلك آخر ما يستحقه فى ذمته من قرض شرعى وثمن كتان ومعاملة بينهما قبل تاريخه بمســتندات شرعية وسجلات حكمية وأوراق بخط يد القنصل المذكور وغير ذلك مما تقدم على تاريخه والى تاريخه حسبما شهد بذلك مكتوب التصــادق المعترف الفرنجى المكتتب بالصالحية النجمية بمحكمة السادة المالكية لدى سيدنا الشيخ شرف الدين بن زكريا يحيى القرامى المالكى خليفة الحكم العرض بالديار المصرية ايد الله تعالى أحكامه وأحسن اليه المعين باقرار يعد من الاستحقاق الثابت المحكوم فيه الموجب لدى سيدنا الحاكم المشــار اليه أعلاه المؤرخ لسابع عشر شهر الله المحرم الحرام من سنة تاريخه بتصديق محمد عطية بن رشيد المعروف بابن عرايس الترجمان الوكيل الشرعى عن كلتادموا القنصل المذكور الثابت توكيله عنه لدى سيدنا الحاكم المشــار اليه بشهادة كل من منصور بن أحمد سلامة المعروف بابن الهليش وابراهيم بن موسى الانشادى له على ذلك وعلى أن موكله كلتادموا المذكور وصــل الى ماكان تحت يد المعلم داحمين المذكور وهو أربعة شكاير زهر بنفسج

وستة وعشرين خرقة جوخ دكيه وقفة مرجان وثلاثة وعشرين ذراع قرمزى كمفا بالدراع الكبير وثمانية وستين ذراع بالدراع الصغير وخلمه الذى كان مرتهنا تحت يد المعلم داحمين المذكور على المبلغ المذكور حسبما شهد بذلك الفصل المكتوب بظاهر المستند المذكور بالمحكمة المشار اليها اعــلاه المؤرخ بتاسع عشرين من صفر سنة تاريخه الوصــول الشرعى بالقبض الشرعى وبريت ذمة كل من داحمين وكلتا دموا للاخر من ذلك ومن غيره البراه الشرعية بتصادق داحمين والوكيل المذكور على ذلك التصادق الشرعى فشهد عليهما بذلك وبالتوكيل فى ثبوته وطلب الحكم به توكيلا شرعيا فى تاريخه وحسبنا الله ونعم الوكيل شهود الحـــــال •

* * *

(الوثيقـــــة رقــم ١٧)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

— دفتر سجل مبايعات رقم (١) •

— مــادة رقــم ٥٤٠ ص ١١٤ •

— عملية محكمة اسكندرية الشرعية •

— من ١٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •

— الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) •

— يوم الاربعاء ١٠ شهر ذى القعدة الحرام سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠)•

— لدى سيدنا الشيخ شمس الدين الكتامى المالكى أيده الله تعالى •

— موضوع الوثيقة : خلاف بين بحارين فى الاسكندرية من جزيرة رودس •

ادعى مانوا بن اليوا النصـــرانى الروديسى على يانى بن جـــرجى النصرانى الروديسى أيضا أنه خدم معه فى مركب هو مقدم رجالها مـــن

مدة ثلاثة سنوات وأنه وضع يده على أجرته منها فى السفرة الاولى أربعمائة عثمانى وثلاثون عثمانيا وفى السفرة الثانية خمسة دنانير ذهبا بندقيا والسفرة الثالثة أربع دنانير ذهبا بندقيا ويطالبه بذلك ويسأل سواله عنه فسيل فأجاب أنه سافر معه سفرة الى اسطنبول خصه فيها بماية عثمانى وضع يده عليها فى دين له عليه ثم أعترف له بثلاثين عثمانى زايد على ذلك وطلب من المدعى البيان على ذلك فذكر أن لابينة له والتمس عنه على ذلك محلف والزم المدعا عليه بدفع ذلك وخرجا على ذلك •

شهود الحـال •

(الوثيقـة رقـم ١٨)

- ارشيف الشهر العقارى بالاسكندريه •
- دفتر سجل مبايعات رقـم (١) •
- عملية محكمة اسكندريه الشرعيـة •
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ - ١٥٥٠م) •
- الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ - ١٥٥١م) •
- يوم الجمعه ١٠ ربيع الثانى سنة (٩٥٨هـ - ١٥٥١م) •
- مـادة رقـم ١٣٩٤ ص ٣٣٨ •
- موضوع الوثيقة : تاجر من البندقية يستدين ثلاثين دينارا من الذهب البندقى من أحد البنادقه فى الاسكندرية •

أشهد عليه ماماى رايس المذكور اعلاه شهوده الاشهاد الشرعى أنه قبض وتسلم من برد امى جوان زانه الفرنجى البندقى مبلغا قدره من الذهب البندقى المشخص ثلاثون دينارا قبضا وتسلما شرعيين اعترافه بذلك للشهود للاعتراف الشرعى وذلك مما له فى ذمه من قرض شرعى

سابق على تاريخه اقترضه منه بجزيرة جربا جملة اصله سبعون دينارا من الذهب الموصوف أعلاه وتاخر له باقى ذلك وهو اربعون دينارا نظرة ان يقوم له بذلك عند مضى خمسة وعشرون يوما وضمته زنيتو ابن نسيان البندقى فى عشرين دينارا من ذلك وطمـــا زين نقوله الترجمان فى ثلاثة عشر دينارا وياكموا ابن فرانسك البندقى فى خمسة دنانير الضمان الشرعى فى الذمة والمال الضمان الشرعى المقبول بتصادقهم على ذلك التصـــــادق الشرعى فشهد عليهم بذلك فى تاريخه شهود الحـــال .

* * *

(الوثيقيـــــة رقـــم ١٩)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبايعات رقـــــم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعيـــة .
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ — ١٥٥٠م) .
- الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ — ١٥٥١م) .
- يوم الجمعة ١٠ ربيع الثانى سنة (٩٥٨ — ١٥٥١م) .
- مـــــادة رقم ١٣٩٣ ص ٣٢٨ .
- موضوع الوثيقة : مواطن عثمانى يرد مبلغا لبحار من البندقية قدره ١٤٥ دينارا من الذهب البندقى ..

اشهد عليه ماماى رايس بن قاسم بن حمزة الازميتى شهوده الاشهاد الشرعى أنه قبض وتسلم من لودان سوا بن برواميتو الفرنجى البنـــدقى مبلغا قدره من الذهب البندقى المشخص ماية دينار وخمسة وأربعـــون دينارا قبضا وتسلما شرعيين وذلك هو القدر الذى كان أقرضه له بجزيرة

جربا من قبل تاريخه وبريت ذمته له من ذلك البراة الشرعية باعترافه بذلك لشهوده وتصادقا على ذلك التصادق الشرعى فشهد عليهما بذلك فى تاريخه شـــهود الحـــال •

(الوثيقـــــة رقـــم ٢٠)

ـــ أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

ـــ عملية محكمة اسكندرية الشرعيـــــة •

ـــ يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الثانى (٩٥٨هـ ـــ ١٥٥١م) •

ـــ مـــــادة رقـــم ١٣٦٤ ص ٣٢٠ •

ـــ موضوع الوثيقة : مملوك حبشى يطالب مواطن قبرصى بتسعة دنانير فى الاسكندرية •

ادعى مرجان بن عبد الله الحبشى الجنس مملوك على رايس على طماز وابن حاكموا الفرنجى القبرصىأنهيستحق فى ذمتهمبلغا قدرهمن الذهب السلطانى الجديد معاملة تاريخه تسعة دنانير بدل قرض شرعى للاستحقاق الشرعى ويطالبه بذلك ويسال سواله عنه فسيل فاجاب الأعتراف فى ذلك وأن له تحت يد رايسه أجرته من اضاليا الى الثغر وتوافقا على أن يقبضه من ذلك خمسة دنانير ويوخر الباقى الى أن يجتمع مع رايسه ويحـــرر حصته وخرجا على ذلك شهود الحال • وحضر مرجان المذكور واعترف أنه وصل اليه جميع المبلغ المذكور وهو التسعه دنانير المذكورة الوصـــول الشرعى بالقبض الشرعى وبريت ذمته له من ذلك البراه وذكر أن المدعا عليه يستحق اجرته عند محمد بن كنان الحنفى الرايس المذكور ستين نصفا فشهد عليه بذلك فى ثالث عشر ربيع الثانى سنة تاريخه شهود الحال •

ثبت المصـــادر والمراجـــع

أولا : باللغـــة العربيـــــة

(أ) وثائق لم يســبق نشرهــا

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، محكمة اسكندرية الشرعية سجل مبايعات رقم (١) ، من ٢٤ شعبان ٩٥٧هـ — ١٥٥٠م الى ١٧ شعبان ٩٥٨هـ — ١٥٥١م •

ب) مخطوطـــــــات :

— ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود (ت سنة ١٠٠٧هـ — ٨ — ١٥٩٩م) : « الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية » مخطوطـة مصورة على ميكروفيلم محفوظة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٣٥٦ • وهى مصورة عن الاصل المحفوظ بمكتبة راغب باشا باستانبول تحت رقم ٩٧٩ • وتتكون من جزئين فى ثلاثة مجلدات ، وتتناول تاريخ اليمن منذ القدم حتى عهد السلطان العثمانى مـراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥م) •

ابن الديبع ،عبد الرحمن بن على بن محمد الشيبانى الزبيدى الشافعى (٨٦٦ — ٩٤٤هـ) و (١٤٦١ — ١٥٣٧م) : « الفضل المزيد على بغيـة المستفيد فى اخبار مدينة زبيد » ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ح ، هى مصورة عن نسخة الدار رقـم ١١ ، وتتناول تاريخ اليمن فى الفترة الممتدة بين ٩٠١ — ٩٢٣هـ / ١٤٩٥ — ١٥١٧) •

— قرة العيون فى اخبار اليمن الميمون « مخطوطه محفوظة بدار

الكتب بالقـــــاهرة تحت رقم ٢٢٤ تاريخ وتتناول تاريخ اليمن حتى نهاية الدولة الطاهرية فى سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) ٠

ابن اياس ، محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، خمسة اجزاء ، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤ ٠

ــ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم مــن ذوى السلطان الاكبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٨٢ ٠

ــ بامخرمه ، أبو محمد بن عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧هـ ــ ١٥٤٠م) : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، مخطوطه رقم ٨٨ بمكتبة بنى جامع باستانبول ، مصور برقم ١٦٧ تاريـــخ بدار الـــكتب بالقـــــاهرة ٠

ــ عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين يحيى (ت ١٤٠٨هـ ــ ١٦٣٨م) : « روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح » مخطوطه مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ ح، وهى مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ تاريخ م ، وتقع المخطوطة فى ثلاثة اجزاء وتتناول تاريخ اليمن منذ مطلع القرن (١٠هـ ــ ١٦م) ٠

ــ قطب الدين النهروالى ، محمد بن أحمد الحنفى المكى ، مفتى مكة فى عصره والمتوفى سنة ٩٨٨هـ ــ ١٥٨٠م : « البرق اليمانى فى الفتـــح العثمانى » مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٤١٤ تاريخ، وتتناول تاريخ اليمن منذ بداية القرن العاشر الهجرى حتى نهـــاية

حملة سنان باشا الوزير على اليمن ، وقد أشرف على نشر المخطوطة حمد الجاسر لاول مرة عام ١٩٦٧ .

— الاعلام بأعلام بلد الله الحرام ، القاهرة ، المطبعة العـــامرة العثمانية ، ١٠٢٣ هـ (١٨٨١م) .

— الموزعى ، شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد — نائب الشريعة فى مدينة تعز . لم يعرف تاريخ وفاته ويرجح أنه كتب مخطوطته فى عهد السلطان عثمان الثانى (١٦١٨ — ١٦٢٢م) « الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان » مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٢٣٧٩ وهى منقولة من نسخة الميكروفيلم المحفوظ بمعهد المحفوظات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، الميكروفيلم مصـــور من نسخة مكتبة على امير باستانبول .

— يحيى بن الحسين بن الامام القاسم بن محمد (ت سنة ١١٠٠هـ — ١٦٨٩م) : « أنباء ابناء الزمن فى التاريخ اليمن » مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ ، وتتناول عرض الاحداث منذ الهجرة النبوية حتى عام ١٠٥٦هـ (٦—١٦٣٧م) .

جـ) بحـــوث ومؤلفـــات منشورة :

— ابراهيم شحاته حسن (دكتور) :

— وقعة وادى المخازن فى تاريخ المغرب ٩٨٦هـ — ١٥٧٨م قـــراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية بالقرن السادس عشر الميلادى ، دار الثقافة — الدار البيضاء — ١٩٧٩ .

— اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، قراءة فى تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (١٥١٠ — ١٩٤٧) ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨١ .

— ابراهيم على طرخان (دكتور) : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ — ١٥١٧) ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠ .

— اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، جـ٢ ، الطبعة الاولى ١٣١٤هـ .

— أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الى القرن العشرين ، الطبعة الاولى ، مطبعة السنة المحمدية القاهرة ١٩٦٣ .

— احمد مختار العبادى (دكتور) : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس الاسكندرية ١٩٦٨ .

— بانيكار ، ك .م : آسيا والسيطرة الغربية ، تعريب عبد العزيز جاويد ، ومراجعة أحمد خاكى ، دار المعارف بالقاهرة .

— توفيق اسكندر (دكتور) : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العهد الوسيط ، بحث مستخرج من المجلد السادس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٧ .

— بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٦١ .

— الجغرافى ، عبد الله بن عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن ، مطبعة الحلبى ، القاهرة ١٩٥١ .

— جلال يحيى (دكتور) : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ .

— جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية ، نقله الى العربية يوسف كمال ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٢٧ .

— جيرار (ب . س.) : الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، وصف مصر ،ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٧٨ .

— حامد سلطان (دكتور) : القانون الدولى العام فى وقت السلم ، القاهرة ١٩٦٢ .

— حسن عثمان (دكتور) : تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧ — ١٧٩٨) فى المجمل فى التاريخ المصرى — القاهرة ١٩٤٢ .

— زكى صالح (دكتور) : مجمل تاريخ العراق الدولى فى العهد العثمانى ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٦ .

— سعاد ماهر (دكتوره) : البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

— سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى فى العصور الاسلامية الوسطى ، ضمن أبحاث مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٥ .

— سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .

— المجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ .

— صور من مجتمع القاهرة فى العصور الوسطى ، محاضرة القيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثامن عشر ، ١٩٧١ .

ـ التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك (٨٧٢ ـ ٩٢٣ هـ / ١٤٦٨ ـ ١٥١٧م) فى ضوء كتابات ابن اياس ، الندوة التى نظمتهـا الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ١٦ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٧٣ ٠

ـ العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الثانية ، دار النهضـة العربية القاهرة ١٩٧٦ ٠

ـ السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الاول لليمـن ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٩ ٠

ـ شارل ديل : البندقية جمهورية الارستقراطية ، تعريب أحمـد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ ٠

ـ شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث (ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب) ، ط١ ، مكتبة الانجـلو المصرية بالقاهرة ١٩٧٧ ٠

ـ صلاح أحمد هريدى على (دكتور) : ـ دور الصعيد فى مصـر مصر العثمانية (٩٢٣ ـ ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ ـ ١٧٩٨) ، دار المعـارف الاسكندرية ١٩٨٤ ٠

ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة رشيد فى العصر العثمانى دراسة وثائقية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان الثلاثون والواحد والثلاثون ، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ ٠

ـ صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ، ١٩٦٥ ٠

— المغرب العربى ، دراسة فى تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة ، الجزائر وتونس ، المغرب الاقصى ، مكتبة الانجلو المصرية بالقـاهرة ، ١٩٨٠ .

عبد الجليل التميمى (دكتور) : الخلفية الدينية للصراع الاسـبانى العثمانى على الايالات المغربية فى القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد (١٠ — ١١) تونس ، يناير ١٩٧٨ .

— عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ، دار الثقافة بيـــروت .

— عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : — المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ١٥١٧ — ١٧٩٨ دراسة فى تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم المصرية ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ١٩٨٢ .

— معالم التاريخ الاوربى الحديث والمعاصر ، دار المتنبى للنشـر والتوزيع الدوحة ، ١٩٨٢ .

— العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية إبان العصر العثمانى ١٥١٧ — ١٧٩٨ ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، جامعـة الكويت ، العدد التاسع ، المجلد الثالث ١٩٨٣ .

— عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٧ .

— الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ثلاثة أجزاء ، مكتبـة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٣ .

— عبد المنعم ماجد (دكتور) : عصر السيوطى ، بحوث ألقيت فى

الندوة التى أقامها المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .

— طومان باى آخر سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة للاسباب التى أنهت حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨

— العقيلى ، محمد بن أحمد عيسى : تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، جزآن ، الجزء الاول طبع بمطابع الرياض (١٣٧٨هـ/١٩٥٨) ، الجزء الثانى طبع بمطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة (١٣٨٠هـ — ١٩٦١م) .

— عمر عبد العزيز عمر (دكتور) : دراسات فى تاريخ العرب الحديث دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٦ .

— فاروق عثمان أباظه (دكتور) : التنافس الدولى فى جنوب البحر الاحمر فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ندوة البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، أبحاث الاسبوع العلمى الثالث ١٠ — ١٥ مارس ١٩٧٩ ، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٨٠ .

— قاسم عبده قاسم (دكتور) : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى دراسة وثائقية ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ .

— ليلى صباغ (دكتورة) : الوجود المغربى فى المشرق المتوسط فى العصر الحديث ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٧—٨ ، تونس ، يناير ١٩٧٧ .

ــ ليلى عبد اللطيف أحمد(دكتورة):الادارة فى مصر فى العصر العثمانى مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٨ •

ــ دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ابان العصر العثمانى ، مكتبة الخانجى بمصر ، ١٩٧٩ •

ــ محمد احمد أمين (دكتور) : تفويض من عصر العادل طومان باى « صانع السلاطين « ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد السابع والعشرون ١٩٨١ •

ــ محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية . دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٩ •

ــ محمد عبد العال أحمد (دكتور) : أضواء جديدة على ملاح فاسكو دى جاما ، مجلة معهد الدراسات والبحوث الافريقية بجامعة القاهرة ، العدد الخامس ١٩٧٦ •

ــ البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه ، نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمنى بامخرمة كما سجلها فى مخطوط « قلادة النحر » دراسة وتحقيق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ١٩٨٠ •

ــ محمد عبد اللطيف البحراوى (دكتور) : فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولى من البر الى البحر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ١٩٧٩ •

ــ محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير ١٨٦٤ ــ ١٨٦٦ ، مجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد التاسع ، ديسمبر ١٩٥٥ •

— المليبارى ، زين الدين المعبدى : تحفة المجاهدين فى بعض أحـــوال البرتكاليين ، نشرة داود لويس لشبونة ١٨٩٨ .

— نعيم زكى فهمى (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ .

— نقولا زيادة (دكتور) : الطرق التجارية فى العصور الوسطى ، مقال نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم ، السنة السادسة ، العددان ٧١ — ٧٢ . سبتمبر — اكتوبر ١٩٨٤ ، بيروت .

— الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة العرب ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥٣ .

— الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ط٢ ، مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٤٧ .

ثانيا ــ مصادر ومراجع باللغات الاجنبية

(ا) وثائق منشــــــــورة

— Aitchison,C. U.: A Collection of Treaties, Engagements, andSanads reiating to India and the Neighbouring Countries, 12 Vols., Calcutta 1892.

— Hurewitz, J. C. : Dipiomacy in the Near and Middle East, 2. Vols, New york, 1956.

(ب) بحوث ومؤلفــات منشورة

— Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the years 1520 - 1527, Translated and Edited by Lord Stanley of Alderly London, Haklyot Society, 1881.

— Atkinson, W. C.: A History of Spain and Portugal, Pelican B. 1970.

— Charles, Roux, F.: Autour d'une route, L'Angleterre, L'Isthme.de Suez T. 1 - 2, Paris 1901.

— Combe, E. : Precis de, 1 'Histoire d' Egypte, T. 3. L' Egyrte Ottoman de la Conquet par Selim I. 1517 a I' Arrivee de Bonaparte 1798 .

— Coupland, R.: East Africa and Its Invaders, Oxford, Clarendon press, 1938.

— Crouchley, M. E.: The Economic Development of Modern iEgyrt. Longmans, Green and Co., London, 1938.

— Denison, R. E.: The Portuguese in India and Arabia, J. R. A. S., part1., January 1922

— Enpstein, M. : Early History of the Levant Company.

— Ferrand, D.: Le Pilote Arabe de Vasco de Gama et les instructions nautques des Arabes au XVe Siecle, Annales de geographie, Paris, 1922.

— Fisher, H. A. L.: History of Europe, London 1945.

— Hammer, J.: Histoire de I 'Empire Ottoman, deruis son origine jusqu'a nes jours ; Tomes 18, Paris, 1836.

— Heyd, W. : Histoire du Commercede Levant au Moyen Age, T. I. & II. Leipzig 1925.

— Holt, P. M. : Egypt and the Fertile Crescent 1516 - 1922, A Political History Cornell Univ. Press. New York, 1969.

— Hoskins, H. L. : British Routes to India, London, 1928.

— «The Growth of British Interest in the Route to India» Tufts Coll.,Mass., U. S. A. Journal of Indian History, II.

— Howe, Sonia, E. : In quest of Spices, London 1946.

— Hunter, F. M.: An account of the British settlement at Aden, London, Turbner and Co., 1877.

— Johnston, H.: History of the Colonization of Africa by Alien races, Cambridge, 1899.

— Kammerer, A.: La Mer Rouge,l'Abyssinie et I'Arabie depiusI'Antiquite. Le Caire, I'Imprimerie de I'Institut Francais d'Archeologie Orientale, pour la Societe Royal de Geographie d'Egypte, 1929, - 1935.

— Lane -Poole, S.:

— Medieval India Under Mohammedan Rule. D. 712. 1764. London 1925.

— A History of Egypt in the Middle Ages, London 1936.

— Marston, T. E.: Britain's Imperial Role in the Red SeaArea, 1800 - 1878. The Shoe String Press, Inc. Hamden, Connecticut, U. S. A.

— Phillips, C. H.: The East India Company 1784 - 1834.

— Playfair, R. L.: A History of Arabia Felix or yemen. Selectionsfrom the Records of the Bombay Gevernment, New Series, XLIX.

— Plowden, W.: Travels in Abyssinia and the Galla Country, London ,, Longmans, 1868.

— Prestage, E. : The Portuguese Pioneers, London, 1962.

— Rabbath, E. : Mer Rouge et Golfe d'Aqaba dans 'evolution duDroit International, Societe Egypienne de Droit International, Janvier,1962.

— Ross, E.D. : The Protuguese in India and Arabia between 1507 -1517, Journal of the Royal Asiatic Society, London, Part IV, October 1921.

— Sauger, R. H.: The Arabian Peninsula, Cornell Univ. Pr., New York, 1954.

— Scott, H.: In the High Jemen, Murray, 1942.

— Serjeant, R. B.: The Portuguese off the South Arabian Coast, Hadrami Chronicles with yemeni and European Accounts of Dutch Pirates off Mocha in 17 th Century, Oxford, Clarendon Press, 1963.

— Shaw, S. J.: The financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798, Princeton, New Jersy; 1964.

— Stephens, H. M.: Portugal, London, T. Fisher Unwin, 3 Edition, 1891.

— Strandes, J.: The Portuguese period in East Aftrica, Transiated by Wallwork, Nairobi.

— Stripling, G. W. F. : The Ottoman Turks and the Arabs, 1511- 1574, University of Illinois Press.,Urbans, U.S.A.

— Strong, A.: The History of kilwa, Journal of the Royal Asiatic Society, London, 1895.

Wiet, G.: L'Egypte (Arabe, Histoire de al Nation Egyptienne), T. IV. paris, 1934.

— Wilson, A. T.: The persian Gulf, London 1954.

Ziada, M. M. : Foreign Relations of Egyptin the Fifteenth Century, 2 Vols. Liverpool 1930.

محتـــــوى البحـــث

رقم الإيداع	١٩١٩ / ١٩٩٤
الترقيم الدولي	ISBN 977 – 02 – 4348 – 5

٣ / ٩٣ / ٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

